

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد بوضياف - بالمسيلة -
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم الفلسفة

الموضوع

العناية الإلهية في التاريخ عند القديس أوغسطين

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في الفلسفة

إشراف :
الأستاذ: أرفيس علي

إعداد الطالب :
زهاق شريف

السنة الجامعية (2017/2016)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ }

الممتحنة الآية 04

{ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطُونِ أَمْهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ

السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }

النحل الآية 78

الإهداء

إلى روح والدي رحمه الله ، وإلى أمي أطال الله في عمرها
وإلى كل الإخوة الذي أتمنى أن أكون خير قدوة لهم
دون أن أنسى جميع الأصدقاء ، وزملاء الدراسة
وأخص بالذكر رفيق الدرب ، "منصور محمد الرزاق"
"صلاح بن قسمة" ، الذي أعطانني من جهده الكثير
دون أن أنسى "يعقوب عادل" ، "وبن قسمة رابع"
إلى كل هؤلاء أهدي ثمرة جهدي المتواضع .

شكر وتقدير

الحمد والشكر لله الذي أعانني على إتمام هذا العمل
ويشرفني إلى أن أتقدم بالشكر والامتنان للأستاذ الفاضل:
"أرفيس علي" على متابعتة لإثراء هذا البحث
كما يشرفني أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذة
"مزواد نسيرة" على نصائحها ، وإلى كلية العلوم
الإنسانية والاجتماعية قسم الفلسفة وكل الأساتذة
المحترمين دون أن أنسى كل زملائي بالدراسة.

والله ولي التوفيق

مقدمة

إن التاريخ هو دراسة لمختلف الأحداث ، ففي سعيه لبلوغ الحقائق التاريخية يعتمد على أدوات وطرائق ومناهج، تختلف بدورها عن الطرائق والمناهج القائمة عليها العلوم التجريبية ، وبذلك فالتاريخ علم من حيث أن له أدواته ووسائله الخاصة من شأنها أن تقوده إلى بلوغ الهدف المنشود ، في حين أن فلسفة التاريخ تحاول أن تقدم تفسير للتاريخ الإنساني ككل ، وذلك من خلال تطبيق الفلسفة على التاريخ ، ومن هنا نستطيع اكتشاف الفروقات بينهما ، فعلم التاريخ يبحث في وقائع معينة زمانا ومكانا (الجزئية) وذلك باستخدامه المنهج الوصفي، بينما فلسفة التاريخ تبحث عن (الكلية) من خلال دراستها للمفاهيم السابقة على البحث التاريخي -أي بما يسمى بالتجريد- ، إضافة إلى مهمة أساسية تقوم بها فلسفة التاريخ وهي اعتمادها على الدراسة النقدية لمختلف المناهج التي يكتب بها التاريخ ، ومن هذا ففلسفة التاريخ تبحث في اتجاه الأحداث .

إن لاهوت التاريخ شأنه شأن فلسفة التاريخ ، بحيث أنه يبحث في الأسباب العلوية وعلى قوى التاريخ الأساسية ، وبذلك يتم ربط التاريخ بالله ، من خلق وعهد وخلص ومن نهاية الأزمنة وكذا القوى المحركة للتاريخ، فلاهوت التاريخ انطلاقا من هذا ، يحاول أن يكشف عن مدى عمل العناية الإلهية في التاريخ ، وهذا ما سعى إليه القديس أوغسطين ، بحيث كان له عظيم الأثر في نشأة هذا الفرع (التاريخ) الذي هو إلهام من فروع الفلسفة وبالذات في الاهتمام بالدين ، بحيث كانت نظريته مصدر إلهام للكثير من الفلسفات الحديثة والمعاصرة في التاريخ ومثال على ذلك ما قاله البريطاني آرنولد توينبي بحيث تصور أن التاريخ هو طريق الإنسانية إلى الله ، ومن هذا فالتاريخ العالمي كما رسمه القديس أوغسطين وحدد معانيه في كتابه مدينة الله ، اتسم بسمات وخصائص معينة ، فهو ينبذ التصورات اليونانية للزمان ويقر بفردية الحادثة التاريخية وعدم تكرارها .

بتعريفنا لعلم التاريخ ومقارنته بفلسفة التاريخ ، أدركنا أن هذا الأخير له علاقة وطيدة بلاهوت التاريخ ، فأوغسطين بفضل نظريته المعرفية التي تقوم على التأسيس اللاهوتي للتاريخ ونموذجه التفسيري للتاريخ أو ما عرف بنظرية العناية الإلهية ، فلقد اعتبر أن التاريخ لديه وظيفة والمتمثلة في مدى خدمته للعقيدة المسيحية وكذا يجب تخليصه من الإرث الوثني الذي علق به منذ اليونانيين ، وذلك بوضعه لمنهج من شأنه أن يكشف مختلف الحقائق التاريخية .

وانطلاقا من هذه المعطيات فإن إشكالية البحث تدور حول : هل كانت نظرة القديس أوغسطين للتاريخ نظرة لاهوتية ؟ أم أنها نظرة فلسفية ؟ وإن كانت نظريته أو تفسيره لمجمل الأحداث التاريخية لاهوتية ، أي أنها ليست خارجة عن نطاق الله وعنايته المستمرة في هذا الكون ، فأين يكمن دور الفلسفة فيها ؟ وللإجابة على هذه

الإشكالية وجب طرح تساؤلات من شأنها أن تمهد لنا الإجابة على الإشكالية ، دون أن ننسى فكرة هامة وأساسية وهي التفسير المسيحي للتاريخ ، فلا يمكن لنا فهم نظرة أوغسطين للتاريخ إلا إذا فهمنا الرؤية المسيحية وتفسيرها للتاريخ .

ومن خلال هذا يمكننا أن نطرح هته التساؤلات على الشكل التالي:

- ما مفهوم العناية الإلهية ؟
- وكذا كيف فسرت الديانة المسيحية التاريخ ؟
- وما العلاقة التي تربط فكرة العناية الإلهية بالتاريخ في الدين المسيحي ؟
- وما هو مفهوم التاريخ عند القديس أوغسطين ؟
- وفيما يتمثل المنهج المعتمد من قبل أوغسطين لدراسة الأحداث التاريخية ؟
- كيف عالج أوغسطين مشكلة الخطيئة وعلاقتها باللطف الإلهي ؟
- هل المفاهيم الثلاثة (الجزاء والقدر وعلم الله المسبق) لها علاقة فيما بينها ؟ وفيما تكمن ؟

إن سبب اختياري لهذا الموضوع يرجع ، إلى العديد من الأسباب أولا وقبل كل شيء إلى رغبتني للبحث العلمي، إضافة إلى ضرورة الكشف عن دور الدين والإيمان باليوم الآخر في تشكيل فلسفة أوغسطين للتاريخ ، زيادة على ذلك إلى أسباب شخصية وهي حبي لدراسة هذا المقياس أي "فلسفة التاريخ" على العموم فكل ما يتعلق بالتاريخ وعلاقته بالفلسفة أود البحث فيه .

تهدف هته الدراسة أي دراستي لفكرة "العناية الإلهية في التاريخ عند القديس أوغسطين" إلى الكشف أولا على جذور هته النظرية فيما سبق العصور الوسطى ، ومن ثمة تحديد العلاقة بين الديانة المسيحية وأوغسطين في كيفية معالجتهما لمضمون الدراسة ، وكذا بيان الفروقات بين كل منهما ، وآخر هدف من هته الدراسة وهو الكشف عن دور الإنسان في التاريخ .

وانطلاقا من إشكالية البحث وضعنا الخطة التالية : مقدمة ، ثلاث فصول ، خاتمة .

- مقدمة : بينا من خلالها كنه الموضوع ومن ثمة الإشكالية المراد دراستها .
- الفصل الأول : جاء بعنوان التأويل اللاهوتي في الديانة المسيحية وتناولنا فيه ثلاث مباحث وهي كالتالي :
 - مفهوم العناية الإلهية عامة .

- التفسير المسيحي للتاريخ . وهنا قمنا بتعريف التاريخ لغة واصطلاحا .
- العناية الإلهية من منظور مسيحي .
- **الفصل الثاني :** تطور رؤية أوغسطين للتاريخ ، بحيث يشمل أربع مباحث وهي :
 - المسار الفكري للقديس أوغسطين وهنا عرضنا حياته ، فلسفته ، مصنفاته .
 - مفهوم التاريخ عند أوغسطين .
 - منهج دراسة الأحداث التاريخية عند أوغسطين .
 - التغير والتطور وهنا ذكرنا أقسام التاريخ .
- **الفصل الثالث :** محرك التاريخ في نظر القديس أوغسطين واندراج تحته أربع مباحث كالتالي :
 - نظرية العناية والتخطيط الإلهي .
 - مشكلة الخطيئة واللفظ الإلهي .
 - الجزاء والقدر وعلم الله المسبق .
 - إرادة الله وإرادة الإنسان .
- **الخاتمة :** التي عرضنا فيها مختلف الاستنتاجات التي أفضت إليها هذه المعالجة .

وبغية الوقوف عند معالجة دقيقة لهذه الإشكالية بما فيها من تساؤلات ، اعتمدنا في إنجاز هذا العمل على المنهج التحليلي والتاريخي ، نظرا لطبيعة الموضوع التاريخية ، وذلك حتى نستطيع الإمام بتحليل تاريخي وفلسفي ، فمن بين خصائص المنهج التاريخي وهو دراسته لمختلف تطور الظواهر وتاريخها ، ففي بحثنا قمنا بدراسة فكرة العناية الإلهية والكشف عن جذورها تاريخيا ، ومن ثمة تحليلها وهنا بصفة خاصة تحليل أفكار القديس أوغسطين ومحاولة شرحها ، وذلك بغية التوصل إلى تحليلات تاريخية فلسفية .

وكغيرنا من الباحثين واجهتنا العديد من الصعوبات ، والتي تتمثل في كون القضايا التي يطرحها أوغسطين لا يصل بها إلى نتيجة واضحة وخاصة في مبحث إرادة الإنسان وعلاقته بإرادة الله ، وكذا مفهومه للجزاء ، لأن أوغسطين دائما يستعمل أسلوب المراوغة والتهرب من الجواب ، إذ وضعت مجهود كبير لمحاولة الوصول إلى نتائج دقيقة وذلك بفضل المراجع التي من شأنها أن تكشف عن مسائله ، ونظرا للأمانة العلمية اجتهدت في عرض أفكاره ، اعتمادا على نصوصه وكذا الإمساك بالتقييم والنقد الذي من شأنهما الوصول إلى أفكار منطقية .

واعتمدنا في بحثنا على مجموعة من المصادر للقديس أوغسطين ، وهي كتابه "مدينة الله" بجميع مجلداته ، وكذا "الاعترافات" ، إضافة إلى كتابه "خواطر فيلسوف في الحياة الروحية" و "شرح رسالة القديس يوحنا الأولى" .

ولإثراء هذا البحث اعتمدنا على مجموعة من المراجع من أهمها : التاريخ وكيف يفسرونه لألبان ويدجري ، أوغسطينوس لعلي زيغور ، روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط لإيتين جلسون ، فلسفة التاريخ لرأفت غنيمي الشيوخ ، فلسفة التاريخ لعبد الحليم عويس ، لاهوت التاريخ لزينب محمود الخضيرى ، فلسفة التاريخ جدل البداية والنهاية والعود الدائم لعامر عبد زيد ، أوغسطين لجاريث ماثيوز ، في فلسفة التاريخ لأحمد محمود صبحي، التفسير الديني للتاريخ لمحمود الشرقاوي ...

دون أن ننسى اعتمادنا على مجموعة معتبرة من المعاجم والموسوعات منها ، المعجم الفلسفي لجميل صليبا ، موسوعة لالاند الفلسفية لأندريه لالاند ، معجم الفلاسفة لجورج طرابيشي ، موسوعة الفلسفة عبد الرحمان بدوي ، الموسوعة الفلسفية العربية لمعن زيادة ...

الفصل الأول : التأويل اللاهوتي للتاريخ في الديانة المسيحية.

المبحث الأول : مدلول العناية الإلهية .

المبحث الثاني : التفسير المسيحي للتاريخ .

المبحث الثالث : العناية الإلهية من منظور مسيحي .

❖ تمهيد :

كانت العصور الوسطى، تثير عادة في بعض أذهان الناس معاني كثيرة ومختلفة أي بأنها تلك العصور التي تمثل حقب الظلام والجهل ولا وجود لخير فيها و يجب تخطيها بأقصى حد للوصول إلى عصر النهضة الذي يعتبر عصر النور و العرفان ، لكن من الخطأ البين أو من الظلم الواضح أن نقول بأن العصور الوسطى تمثل حقبة مظلمة مقفلة على نفسها ، الحقيقة أن المدنية الحديثة كانت أصولها مستمدة عنها-العصور الوسطى- ، و أنه لا يمكن تفسير المذاهب الفلسفة الحديثة ، و فهم مصطلحاتها بغير الرجوع إلى المذاهب المدرسية السائدة آنذاك ، فالحدود التي يرسمها المؤرخون متداخلة في الواقع ، لأن كل العصور متضمنة فيما بينها ، أي موصولة ببعضها البعض ، بحيث أن كل زمن يرث من الزمن الذي سبقه ، فالمخلف للاحق ، فالعصور الوسطى ، كان لديها أثر كبير على الفكر الفلسفي بما فيه من مسائل ، تاريخية ، لاهوتية ، سياسية... الخ ، فكل هذه الموضوعات تناولتها العصور الوسطى وأخص بالذكر الديانة المسيحية ، التي كانت لدى البعض لا تمثل أي وجه من وجوه التاريخ ، إلا أن الشيء الذي لا نستطيع إنكاره بأنه قد كان لديها حس تاريخي وهذا ما سنراه خلال الفصل ، وهذا ما دفعني إلى طرح تساؤلات ، محاولا بذلك إزالة الغموض واللبس على بعض المصطلحات ، ففي هذا الفصل ، سأعرج على مفهومين ، ألا وهما ، ما مفهوم العناية الإلهية ؟ ، وما مفهوم التاريخ ؟ ، وكذا كيف فسرت الديانة المسيحية مجمل الأحداث التاريخية ؟ ، إضافة إلى طرح سؤال مفصلي في هذا الفصل ، ألا وهو ، فيما تتمثل نظرة المسيحي لمفهوم العناية الإلهية ؟

الفصل الأول : التأويل اللاهوتي للتاريخ في الديانة المسيحية .

المبحث الأول : مدلول العناية الإلهية .

ورد في موسوعة لالاند الفلسفية أن كلمة العناية الإلهية أو اللطف الإلهي ، « هي بمثابة فعل يمارسه الله على العالم بوصفه إرادة تقود كل الأحداث إلى غايات .¹ »

من خلال تعريف لالاند ، ندرك بأن العناية الإلهية هي التي تتحكم في كل الأحداث ، لأن هته الإرادة ناتجة عن فعل و هذا الأخير مصدره الله لأن إرادته في إدارة هذا الكون ليست اعتباطية و إنما من أجل إحداث تغيير للوصول إلى غايات و أهداف بفضلها يكون هذا العالم منظم وفقا لخطوة محكمة .

وقد قسم لالاند اللطف الإلهي إلى قسمين ، اللطف العام و اللطف الخاص ، فالأول يطلق على التنظيم الدائم للأشياء ووضع القوانين الثابتة ، أما الثاني و هو المماثل لتدخل شخص ما في الأحداث المتعاقبة ، أي أن اللطف الخاص ناتج من خلال التدخل الشخصي ، فالعناية الإلهية من هذا المنطلق تكمن في أمرين ، أمر يبدأ من خلق العالم و كل ما يحتويه ، أما الأمر الثاني فيعتمد على النظام ويستخدم هذا الأمر في حل الفوضى الحاصلة في عالم الطبيعة .²

و كما جاء أيضا في المعجم الفلسفي لجميل صليبا أن « العناية هي علم الله بما ينبغي أن يكون عليه الوجود حتى يكون على أحسن نظام و أكمله »³

إن العناية الإلهية من هذا المنطلق ليست فقط فعل ممارس من طرف الله على هذا العالم و إنما هي معرفة لما يجب أن يكون عليه الكون ، كما ذكره جميل صليبا ، لأنه من خلال معرفة ما يجب أن يكون عليه هذا الوجود بصفة مطلقة نفهم بأن العناية الإلهية تريد نظام أحسن للكون .

¹ أندريه لالاند : موسوعة لالاند الفلسفية ، تعريب خليل أحمد خليل ، المجلد الثاني ، ط2 ، منشورات عويدات ، بيروت ، باريس ، 2001، ص 1064 .

² المرجع نفسه ، ص 1064 .

³ جميل صليبا، المعجم الفلسفي ، الجزء الثاني ، (دط) ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، 1982 ، ص 110 .

وفي هذا السياق نستعين بتعريف ابن سينا * بحيث يقول « كون الأول عالما لذاته ، بما عليه الوجود من نظام الخير و علة لذاته للخير و الكمال بحسب الإمكان ، وراضيا به على النحو المذكور ، فيعقل نظام الخير على الوجه الأبلغ في الإمكان ، فيفيض عنه ما يعقله نظاما وخيرا على الوجه الأبلغ الذي يعقله فيضانا على أتم تأدية إلى النظام بحسب الإمكان.¹ من خلال ما جاء في مقولة ابن سينا يظهر لنا بأن الله عالم بالجزئيات أي أنه عالم بالوجود ، و بعلم الله لهذا الوجود ، فإنه يفيض أي يمنح و يعطي ما يعقله لأن الله هو الذي يتحكم في كل الموجودات و هته الأخيرة كما قلت تسير وفقا لإرادة الله العليا .

إن الجدير بالذكر هنا أن نوضح الفرق بين كل من العناية و القضاء و القدر ، « و هو أن القضاء يعبر عن وجود جميع الموجودات في العالم العقلي مجتمعة و مجملة على سبيل الإبداع ، على حين أن القدر هو وجودها الخارجي في الأعيان مفصلة واحدا بعد واحد ، أما العناية فهي علم الله بالموجودات على أحسن النظام و على كل ما يجب أن يكون لكل موجود من الآلات بحيث يترتب عليها جميع الكمالات التي تخصه ، و معنى ذلك أن مفهوم العناية تفصيلا ، إن هي تعلق العلم بالوجه الأصح و النظام الأكمل بخلاف القضاء فإنه العلم بالموجودات جملة .² »

انطلاقا من هته المقارنة بين كل من العناية و القدر و القضاء ، يتبين لنا أن العناية هي أمر ناتج من خلال فعل الإحاطة على مختلف الأمور ، و من هنا نقول أن العناية تهدف إلى بلوغ الكمال في الطبيعة و هذا من أجل أن يكون الكون أو بالأحرى النظام الكوني محكم بخطة معينة ينتجها بطبيعة الحال من يقوم بفعل العناية ، في حين القضاء هو ذلك الحكم الكلي على هذا الوجود مثل الحكم بأن نقول أن كل نفس ذائقة الموت و هذا حكم شامل بمعنى أن كل نفس بشرية مردها إلى الله أي أنها خاضعة للموت ، على غرار القدر الذي يعتبر تفصيل ذلك الحكم بتعيين الأسباب ووجودها الخارجي في الأعيان كما ذكرته سابقا ، بمعنى أن القدر و هو التفصيل لمعرفة ما وراء حدوث سبب ما للكشف عنه .

* ابن سينا ، (980 م / 1038 م) عالم في المنطق و في علم الطب ، (راجع ، عبد الرحمان بدوي : موسوعة الفلسفة ، الجزء الأول ، ط 1 ،

المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، 1984 ، ص 40 .)

¹ نقلا عن ، جميل صليبا ، المرجع السابق ، ص 110 .

² المرجع نفسه ، ص 110 .

وهكذا يمكننا تعريف العناية الإلهية « بأنها مبدأ يعطي الله كل الفعل في الأحداث التاريخية ، و يعفي الإنسان من صنع تاريخه أو حتى مجرد التدخل في صنعه و إنشائه ، و هذا يعني أن كل الأحداث التاريخية و مختلف الظواهر خاضعة لمشئمة واحدة ألا وهي مشئمة الله دون تدخل أي مخلوق في هذا ، فالإنسان في هذا الصدد هو ذلك الكائن الضعيف أو الإنسان المخلوق الذي يسير دون اختيار في حياته ، فالإنسان من هذا مسير و ليس مخير ، وأن كل الوقائع التاريخية شاملة للإنسان و الأحداث التاريخية بأكملها تخضع للمشيئة الإلهية ، و تنكر القول بالمصادفة* في التاريخ لأن المصادفة ما هي إلا تعبير عن الفوضى و العبث و من هنا نحن في غنا عنها.¹

ويتضح لنا هذا أكثر في مقولة ماليرانش** حيث يقول « أن عناية الله قسمان ، أحدهما أن الله لما خلق العالم و بدأ بتحريك المادة أجرى إرادته بأن لا يكون في تعلق الطبيعة بلطفه و نعمته أقل خلل ممكن ، و الآخر أنه كلما شاهد في نظام الطبيعة خللاً أصلحه بمعجزاته ، شريطة أن يؤدي ذلك إلى تحقيق النظام المطلوب ، لأن النظام عند الله قانون كلي و هو لا يتخلى عنه أبدا .²

من خلال ما قال به ماليراش يتبين لي أن العناية نوعان ، عناية عامة بحيث يكون العالم خاضعاً لنظام ثابت و قوانين أرادها الله هنا تكون العناية عامة ، و تكون خاضعة إذ كان الله يتدخل في شؤون العالم و هذا التدخل شبيه بتدخل الإنسان في مجرى الحوادث الجزئية هنا تكون العناية خاصة ، و هذا التقسيم شبيه بالتقسيم الذي ذكرته سابقاً عند أندريه لالاند في تقسيمه للطف إلى العام و الخاص .

وما يمكن لنا قوله و هو أن الله بفضل فعل العناية ، أراد أن لا يكون في الطبيعة أي خلل كان ، و إن وجد أي خلل في هته الطبيعة أصلحه بفضل معجزاته ، و لكن يجب أن يؤدي هذا الإصلاح إلى تحقيق النظام المطلوب أي الذي يريده الله ، لأن النظام عند الله هو بمثابة القانون الكلي الذي لا يتخلى عنه أو بالأحرى لا تستطيع الطبيعة أن تقوم بدونه لأنه الأساس عند الله .

* المصادفة : تقابل الضرورة و القانون و التدبير و الغائية ، لأن ما يحدث صدفة ينفي حدوثه بالضرورة و ما يحدث صدفة يعني عدم خضوعه للقوانين التي نعرفها (راجع ، مع زيادة : الموسوعة الفلسفية العربية ، ط 1 ، معهد الإنماء العربي ، (د م) ، 1986 ، ص 532 - ص 533) .

¹ رأفت غنيمي الشيش : فلسفة التاريخ ، (د ط) ، دار الثقافة و النشر و التوزيع ، القاهرة ، 1988 ، ص 75 .

** ماليراش ، (1638 / 1715) فرنسي من أنصار ديكرت ، مع نزعة دينية و صوفية واضحة ، (راجع ، عبد الرحمان بدوي : موسوعة الفلسفة ، الجزء الثاني ، ط 1 ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، 1984 ، ص 429 - 430) .

² جميل صليبا ، المرجع السابق ، ص 111 .

المبحث الثاني : التفسير المسيحي للتاريخ .

✓ أولا : معنى التاريخ في اللغة .

جاء في المعجم الفلسفي لجميل صليبا ، « أن التاريخ تعريف الوقت و تاريخ الشيء وقته وغايته ، والتاريخ أيضا علم يبحث في الوقائع و الحوادث الماضية ... و يطلق على كلمة تاريخ في أيامنا هذه على العلم بما تعاقب على الشيء في الماضي من الأحوال المختلفة سواء أكان ذلك الشيء ماديا أم معنويا ، كتاريخ الشعب و تاريخ الأسرة وتاريخ القضاء ... »¹

من خلال هذا التعريف نفهم أن التاريخ دراسة لمختلف الأحداث الماضية و النظر إلى كل الوقائع و الأحوال المختلفة ، و كما ورد في موسوعة لالاند الفلسفية أن كلمة تاريخ « من اليونانية (IotopIa) ، بحيث استعمال (راجع totop EtV ، استعلم ، تحرى) و من ثم معرفة و أخيرا منسوبة ما يعرف تاريخ »² ، و هنا أيضا يشير مصطلح التاريخ إلى البحث و التحري و للكشف على مختلف الأحوال الماضية و ذلك من أجل معرفة أسباب حدوثها .

✓ ثانيا : معنى التاريخ في الاصطلاح .

إن التاريخ كما ذكره معن زيادة في الموسوعة الفلسفية العربية ، بحيث عرفه بأنه « مجموع وقائع الماضي ، و هو أيضا المعرفة المتعلقة بهذه الوقائع ، و هذا التعريف المزدوج لا يعني بطبيعة الحال أن هناك تطابقا لازما بين وقائع الماضي و المعرفة التاريخية بهذه الوقائع إذا أن هذه المعرفة تظل جزئية و إنتمائية بحسب ما يتوفر عليه المؤرخ من مواد و بطبيعة ما يقوم به من تركيب و تنظيم و سرد معين و تكوين تفسير ما للماضي. »³

إن التاريخ بهذا المنطلق أخذ العديد من المفاهيم بحيث « إن كلمة التاريخ في الماضي لم يكن لها معنى واحد بل كانت تحمل معاني متعددة فمثلا التاريخ عند (سقراط) كانت تدل على المعرفة ، و عند (أرسطو) على مجرد جمع

¹ جميل صليبا : المعجم الفلسفي ، الجزء الأول ، (د ط)، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، 1982، ص ص 227 – 228 .

² اندريه لالاند ، المرجع السابق ، ص 558 .

³ معن زيادة ، المرجع السابق ، ص 217 .

الوثائق ، و كذا التاريخ عند (يكون) هو علم بالأمور الجزئية لا بالأمور العامة فهو بذلك - أي التاريخ - ضد الشعر لأن موضوع هذا الأخير وهمي في حين موضوع التاريخ واقعي .¹

لو نظرنا إلى أصول مصطلح التاريخ لوجدنا بأن « كلمة تاريخ تعود جذورها إلى كلمة " إستوريا " اليونانية التي استخدمها هيرودوت (425-484 ق.م) عنوانا لكتبه التسعة ، و هذه الكلمة - أي كلمة إستوريا - تعني الاستفسار أو التقصي من أجل الفهم ، مما جعل المعنى يتركز على خاصيتين من خواص الفكر اليوناني القديم في القرنين السابع و السادس قبل الميلاد و هما المشاهدة و التساؤل ، بحيث نزل هيرودوت بالتاريخ من مجرد سرد لسير الآلهة وحكومات الآلهة إلى علم إنساني يهتم ببني الإنسان ونشاطهم على الأرض ، و لهذا السبب يعتبر هيرودوت إمام الدراسات التاريخية في التراث التاريخي الأوروبي عامة .²

عندما صار الرومان سادة على عالم البحر المتوسط ورثوا حضارة صاغها من سبقوهم لاسيما المصريين و اليونانيين ، ففي مجال الثقافة كان اليونان هم أبرز المعلمين لسادة البحر المتوسط الجدد ، فورث الرومان كثيرا من المفاهيم الثقافية اليونانية القديمة و ألبسوها ثوبا لاتينيا ، فلقد كان مفهومهم للتاريخ هو أيضا من بين موروثاتهم ، فاستخدموا كلمة إستوريا اليونانية في حروف لاتينية (Histoira) لكي تدل على المعنى نفسه ، و من هذه الكلمة اشتقت الكلمات الأوروبية الحديثة مثل كلمة (History) الإنجليزية و كلمة (Histoire) الفرنسية ، إلا أنه في ظل الإمبراطورية الرومانية كان التاريخ مجرد إعداد للحياة السياسية و العسكرية ، فقد كان التاريخ يدرس على هامش الأدب ، بحيث أرسى "شيشرون" الخطيب الروماني المفوه ، القواعد التي يجب على الخطيب أن يلتزم بها عند روايته للتاريخ إلا أنه أعلى من شأن البلاغة على حساب التاريخ و هذا بدوره أهم قاعدة يجب أن يتحلى بها كل خطيب أي تمكنه في مجال البلاغة .³

ومن هنا اختلفت آراء المؤرخين حول تحديد دقيق لمصطلح التاريخ لأنه مجال معقد بدرجة تكاد تجعل من المستحيل الوصول إلى مصطلح يحظى بالموافقة الجماعية . وبهذا لا نكاد أن نجد اتفاق من شأنه أن يوصلنا إلى تحديد المعنى من التاريخ .

¹ جميل صليبا : المعجم الفلسفي ، الجزء الأول ، ص ص 227 - 228 .

² قاسم عبده قاسم : تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية ، ط 1 ، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية ، الهرم ، 2000 ، ص 25 .

³ المرجع نفسه ، ص ص 26 - 27 .

إلا أننا يمكن أن نعرفه بشكل عام بأنه « سجل للماضي ، أو على الأقل جزء من هذا الماضي الذي يحمل معه حياة البشر ، فالتاريخ يبدأ مع بداية حياة الإنسان على الأرض . »¹

التاريخ بهذا المعنى يحمل معه أحداث الماضي ، حتى ولو كان جزء بسيط منه ، لأن كلمة التاريخ حسب آراء المؤرخين مقترنة بصفة خاصة بالإنسان منذ وجوده على الأرض ، و من هنا فمهمة التاريخ تدوين ما يجري في حياة الإنسان على العموم .

✓ ثالثاً : رؤية المسيحية للتاريخ .

إن الفكرة الشائعة عن المسيحية و هي عدم اهتمامها بالتاريخ ، و لكن من الخطأ أن نعتبر أن المسيحية لم تهتم بالتاريخ ، الخطأ يتمثل في نظرنا إلى التاريخ في العصر الوسيط بنظرة العصر الحديث ، و من ثم لن يكون هناك شعر و لا فن ، فالعصور الوسطى كان لديها حس تاريخي ، و لا يمكن لنا فهم التاريخ إلا إذا فهمنا غاية الإنسان، فغاية الإنسان هي الوصول إلى الله و تأمل ذاته ، فالإنسان بدوره وسط بين الله و الأشياء ، فالله و نعمه على البشرية أعطى للإنسان ذاكرة وفضلها تجمع الماضي و تجعل منه يتوقع المستقبل .²

وتجدر الإشارة هنا بضرورة ذكر العبارة التي تقول « أن تاريخ العالم لا يعني تاريخاً للاختيار المستمر ، و إنما يؤكد تقدماً جماعياً للبشرية . »³ و هذا ما ساعدا العصور الوسطى بميلاد فلسفة التاريخ ، و يعود الفضل هنا إلى الله الذي منح للإنسان تلك الذاكرة التي يجمع فيها الماضي المتعلق به أي أنها تحتوي كل تاريخه منذ ولادته على وجه الأرض و تجعله من ذلك يتوقع المستقبل الذي ينتظره .

إن المسيحية تقدم التاريخ على شكل أو صورة من دراما المسرحية « فالفصل الأول من هته المسرحية و هو "سقوط آدم" بما أعقبه من استمرار الخطيئة* التي تباعد عن الله بين ذرية آدم ، أما ما يخص الفصل الثاني من المسرحية هو دخول الله في التاريخ متجسداً في صورة بشرية أي في "يسوع المسيح" وهذا الفصل يحمل معه قدوم المسيح لتأسيس الكنيسة المسيحية ، و أخذ يجمع التلاميذ و ذلك من خلال تأثيره البالغ عليهم ، و كذا تخلص البشرية بوفاته على الصليب ، إضافة إلى أن دلالة بعثته و صعوده إلى السماء معطيا البشر تأكيداً بخلودهم أما

¹ قاسم عبده قاسم ، المرجع السابق ، ص 28 .

² إيتنر جلسون : روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط ، ترجمة ، إمام عبد الفتاح إمام ، ط3 ، مكتبة مدبولي ، (د م) ، 1996 ، ص 433 .

³ المرجع نفسه ، ص 433 .

* الخطيئة : أو الذنب و هو التهاون بشريعة الله ، و الامتناع عما أمر به ، و كل إثم خطيئة (راجع ، جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، الجزء الأول ، ص 535) .

الفصل الرابع و الأخير في المسرحية و هو عودة المسيح للمرة الثانية إلى العالم جالبا معه يوم الحساب و فاتحا لمملكة السماء التي تتصف بالكمال و أنها حاملة معها أتم البركات .¹

يعتبر الكتاب المقدس لدى المسيحيين بمثابة الكمال لأنه يتميز بمميزات خاصة ، حيث أنه يحمل معاني كثيرة للتصور التاريخي لديهم و بهذا فهو ، « يجرى تصور التاريخ في صورة الوحدة و ذلك لأن المصائر التاريخية جميعا تقع تحت سيطرة سيادة واحدة .²

إن الشيء المهم في التصور المسيحي للتاريخ و هو أن الكتاب المقدس يصور لهم التاريخ في شكل وحدة متناسقة الأجزاء ، بيد أن هته الوحدة يحكمها السيد المسيح و من ثمة فهو الموصوف بوحدة التاريخ و بهذا ترد إليه مجرى كل الأحداث الواقعة في الطبيعة .

إن المفهوم الذي تصوره المسيحيون كون أن الله قد زعمهم بأنه حاضر في صورة روح القدس ، و انطلاقا من هذا التصور فإن المسيحية تصورت الله في صورة ثالث في واحد (الأب ، الابن ، و روح القدس) ، و لو أردنا تعريف هذا الثالث برأي المسيحيين لوجدنا أن « الأب هو بمثابة الصورة السامية التي لا تلحق و بذلك فهو قد طوع ظهور التاريخ ، أما ما يخص الابن فقد اعتبروه المخلص الذي بعثه الله من أجل غاية و قصد و هذا القصد هو أن يرد التاريخ إلى هدفه الذي أراده الله منه ، أما بخصوص روح القدس فهو الذي يظهر للناس أثناء عملية التاريخ .³

إن الجدير بالذكر و هو أن المسيحية كانت تقول بوجود ثلاث نظريات تاريخية ، تدور حول المصير النهائي للأفراد « حيث تتمثل أول نظرية في مذهب الخلاص الشامل ، بحيث ينص هذا المذهب بأن كل الناس بدون استثناء في مرحلة معينة سيبلغون درجة الكمال ، أما ثانيا فهو مذهب الخلاص المشروط ، مضمون هذا المذهب و هو التصفية بمعنى أنه لن يبقى و يدوم سوى من يستحق استمرار بقائه ، أما الفئة الأخرى فسيكون مصيرهم الإبادة ، أما ثالث مذهب يتمثل في السعادة الأبدية أو الخسران المبين و بهذا يفوز الطيبون بسعادة السماء في حين يقاسي الخبيثون شرا أبديا و هو جحيم البعد عن الله .⁴

¹ ألبان ويدجري : التاريخ و كيف يفسرونه ، من كونفشيوس إلى توينبي ، ترجمة ، عبد العزيز توفيق جاويد ، الجزء الأول ، ط2 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (د م) ، (د ت) ، ص ص 173 – 174 .

² المرجع نفسه ، ص 204 .

³ عبد الحليم عويس : فلسفة التاريخ ، نحو تفسير إسلامي للسنن الكونية و النوااميس الاجتماعية ، ط1 ، الصحوحة للنشر و التوزيع ، القاهرة ، 2011 ، ص 86 .

⁴ ألبان ويدجري ، المرجع السابق ، ص 177 .

وفي هذا دلالة إلى أن هته النظريات ضرورية لأنها تعطي المعنى الكلي لحقيقة الفرد ، فهي تعبير عن مصير الفرد وذلك نتيجة لأفعاله على الأرض وهذا حسب مبدأ الاستحقاق أي كل فرد ودوره في استمراره ومدي بقائه . من هذا كله فإن العقيدة المسيحية تبدأ و تتأسس من خلال تأكيدها على الفكرة القائلة بأن « حياة المسيح و موته و قيامته تمثل حادثة في التاريخ ، يتم في ثناياها و بواسطتها إفصاح عن المعنى الكامل للتاريخ .¹ في هذا دلالة على أن ظهور أو تجلي السيد المسيح يعد قفزة نوعية في التاريخ المسيحي ، لأن مرد الأمور راجعة إليه ، و بذلك موته و قيامه و حياته كلها تعتبر بمثابة حوادث هامة في التاريخ ، لأنه من خلال هته الأحداث يكتشف لنا المعنى الحقيقي للتاريخ .

إن النصارى يعترفوا بحقيقة ألا و هي بأن الأناجيل ليست منزلة من عند الله على السيد المسيح ، و لا أن المسيح أتهم بها ، كونهم لا يختلفون بأنها أربعة تواريخ قام بتأليفها أربعة رجال معروفين ، في أزمان متباعدة ، و هذه التواريخ هي كالتالي:²

- تاريخ ألفه " متى اللواني " بالعبرانية بعد تسع سنين من رفع المسيح ، في نحو ثمان و عشرين ورقة .
 - تاريخ ألفه " مرقص الهاروني " بعد اثنين و عشرين عاما من رفع المسيح ، و كتبه باليونانية في أنطاكية .
 - تاريخ ألفه " لوقا الطيب " تلميذ شمعون باطرة ، كتبه باليونانية .
 - تاريخ ألفه " يوحنا ابن سيزاي " تم تأليفه باليونانية بعد رفع المسيح .
- يقال بأن « الأناجيل الثلاثة الأولى أنها "واحدة النظرة" لكونها ترى بالعين ذاتها ، و تتبع النظام ذاته ، و تقرأ بنظر واحد ، و هي إذ تتفق فيما بينها تختلف عن القديس يوحنا ذي الاستقلال الأجل إلى فيما يرويه عن الآلام ، و ليست الأناجيل في مطلق الأحوال كتباً تاريخية ، فهي لا تهتم بالسرد التاريخي ، و ما يتطلبه من عناية بالتفاصيل و الزمن و الترتيب و التوثيق ، إلا أن لها قيمة تاريخية فعلية ، فقد كان الإنجيليون الأربعة شهود عيان ، و كان هناك إلى جانبهم شهود آخرون معاصرون يستطيعون تثبيت ما أورد الأربعة في أناجيلهم من قول أو فعل.³

¹ ألبان ويدجري ، المرجع السابق ، ص 204 .

² عبد الحليم عويس ، المرجع السابق ، ص 76 .

³ علي زيجور : أوغسطينوس ، مع مقدمات في العقيدة المسيحية و الفلسفة الوسيطية ، ط1 ، دار اقرأ ، بيروت ، لبنان ، 1983 ، ص 10 .

من خلال هذا التقسيم لمجمل الأناجيل ، يمكننا القول بأن كل إنجيل له وجهة نظر تعبر عن شخصية المسيح و تاريخه ، إلا أن الفروقات و التباينات تبدد أمام ذلك الاتفاق حول مجمل الحوادث و حول شخصية يسوع المسيح ، بمعنى أن كل الأناجيل تعبر عن هذه الشخصية لكن بطرق خاصة في كل إنجيل .

إلا أن التقسيمات الأربعة للأناجيل-التي ذكرتها سابقا- ، جعل أغلب علماء النصارى يعترفون بأن هذه الأناجيل لن تصمد أمام منهج النقد العلمي الحديث ، و في هذا نستعين بمقولة ألبان ويدجري* حيث يقول « إنه قياسا على مناهج ما يمكن أن يسمى باسم التاريخ العلمي ، لا يمكن إثبات أن الأحداث التي تعد أساسية في المسيحية قد حدثت فعلا . »¹

أراد ويدجري أن يقر بأن الديانة المسيحية قائمة على مبادئ خيالية ، و ذلك حسبما ذكر في الأناجيل الأربعة و هذا ما ظهر في قوله بأن الأحداث التي تعد أساسية في المسيحية لا يمكن أن تثبت بأنها قد حدثت فعلا ، وذلك لافتقارها المنهج العلمي ، و بأن التواريخ الأربعة لم يتقبلها المنهج العلمي و بهذا كانت معرضة لكل أشكال النقد ، مع العلم أن كل الأناجيل هي لمجهودات قام بها مجموعة من الرجال و بهذا لا نستطيع أن نقر بأنها صحيحة ، لأن الإنجيل الحقيقي الذي نزل على "السيد المسيح" لم يوجد إلى حد الآن .

إن التاريخ كما تراه المسيحية هو تاريخ خلاص الإنسان عبر الزمان ، بحيث يعطي الكتاب المقدس التاريخ على شكل صورة لخطتين محددين في أسلوب محكم و رائع ، و هذا ما يثير دهشة كل من يقرأ فقرة من هذا الكتاب و ذلك لمقدرة الله في تكوين خطة محكمة التي غطت الماضي و الحاضر و المستقبل ، بالرغم من أية حياة زائلة لا تغطي سوى جزء تافه من التاريخ ككل ، بحيث كلمة الله في الكتاب المقدس كانت تسعى لتساعد على التجاوز للماضي و الحاضر من أجل التنبؤ باكتمالها في الآخرة .²

ومن جوانب النظرة المسيحية للتاريخ أيضا ما يروونه من أن أهم ما في الحياة هو الاتجاه الروحي الحيواني ، و هو اتجاه قطب الرحي فيه حب الله و طاعة لإرادته ، و هي المؤيدة إلى الحب الخالص للنفس و للجيران ، و قد

* ويدجري : ولد عام 1887 ، ماجستير في الآداب من جامعة كامبريدج ، و أستاذ بجامعة ديوك بالولايات المتحدة الأمريكية ، تولى رئاسة تحرير مجلة "الفلسفة الهندية" ، و مجلة علم الاجتماع الهندية ، من أعماله المذاهب الكبرى في التاريخ ، و كذا المعاني في التاريخ (راجع ، ألبان ويدجري ، التاريخ و كيف يفسرونه ، مرجع سابق ، ص 7) .

¹ عبد الحليم عويس ، المرجع السابق ، ص 76 .

² بيريل سمالي : المؤرخون في العصور الوسطى ، ترجمة ، قاسم عبده قاسم ، ط2 ، دار المعارف ، القاهرة ، 1984 ، ص 37 .

تقبلت المسيحية آلام الصليب بوصف أن هته الآلام مردها إلى إرادة الأب ، لأنهم يرون - أي المسيحيون- أن مثل هذه الآلام تقلل من الخطايا و التخلص من الآثام ، لأنها تعدهم بحياة السعادة في جنة الفردوس¹. وفي هذا الصدد يقول هنري مارو « نحن نملك بفضل الكتاب المقدس ، تاريخاً لأصول الإنسان ، و تاريخاً للشعب المختار و إعداد لمجيء السيد المسيح و للحياة ... فيجب أن يستقيم ، أولاً ، تعليم الكتاب المقدس تعليماً متماسكاً و موحداً ، و لكن هذا لا يكفي ، و القصص التاريخي التوراتي لن يكون أكثر من أسطورة ، إذا لم نتوصل إلى كتابته في موسع التاريخ الكوني ، وإلى إيجاد مكان له في مسلسل الزمني المقارن للإمبراطوريات². »
يريد هنري مارو من خلال مقولته أن يعدل طريقة المعاملة مع الكتاب المقدس ، لأنه لا يعتبر به كتاب يأمر بتعاليم معينة و فقط بل أكثر من ذلك لأنه حامل لتاريخ أصول الإنسان ، فالكتاب المقدس رؤية في الحياة المتميزة ، و لقد قارن هنري مارو بين الكتاب المقدس و بين الكتب السماوية التي سبقتة ، بحيث اعتبر الكتاب المقدس بمثابة المنزل العليا في التاريخ الكوني .

تؤمن الديانة المسيحية بفكرة هامة مفادها « أن الناس جميعاً متساوية أمام الله ، و لا يوجد شعب اصطفاه الله دون سائر الشعوب الأخرى ، أو بالأحرى لا يوجد جنس يمتاز على غيره أو طبقة اجتماعية تمتاز على غيرها ، كذلك لا توجد هيئة اجتماعية أسمى مكان أو مقام من غيرها ، كذلك للفرد دور في المساهمة مع غيره من الشعوب في تنفيذ مشيئة الله ، و من ثم تكون العملية التاريخية في كل زمان و مكان على نسق واحد و كل مرحلة منها مرحلة من هذه العملية التاريخية بمعناها الكامل .³ »

ويمكن أن نلخص مميزات التاريخ في الديانة المسيحية من خلال أن يكون التاريخ تاريخاً للعالم ، يرجع إلى أصل الإنسان ، و يعرض للكيفية التي نشأت بها الأجناس البشرية و استقرت في أنحاء الأرض المختلفة كذلك لا بد أن يصف نشأة المدينيات و الدول و انهيارها ، إضافة إلى ذلك أن يكون التاريخ قدرياً حيث لا ينسب الأحداث لحكمة البشر ، ولكن لأعمال القدر الذي سبقت في عمله هذه الأحداث فرسم لها طريقها ، حيث يهتم هذا التاريخ بالكشف عن تدبير مفهوم يتجلى في المجرى العام للأحداث ، و بصفة خاصة يعلق أهمية كبرى في حياة المسيح التاريخية و يجعلها محور الحوادث ، و من الواضح أنها من أهم العناصر التي سبقت بها الإرادة في هذا التدبير

¹ عبد الحليم عويس ، المرجع السابق ، ص 86 .

² قاسم بزيك : التاريخ ومنهج البحث العلمي ، ط1 ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، لبنان ، 1990 ، ص 21.

³ رأفت الشيخ : تفسير مسار التاريخ ، نظريات في فلسفة التاريخ ، (د ط) ، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية ، الهرم ، 2000 ،

، و آخر ميزة و هي أن التاريخ يقسم إلى حقب أو فترات لكل فترة طابعها الخاص ، و تفصل بينها و بين الفترة السابقة لها ، حادثة تعتبر من وجهة اللغة الفنية التي اصطلح عليها مثل هذا التاريخ بداية عصر¹.
ومن خلال عرضي لهته المميزات التي تقول بها الديانة المسيحية في التاريخ ، أدركت بأن أهم ميزة في التاريخ عند المسيحية هي مولد السيد المسيح لأنه بميلاد السيد المسيح افتتح عصرا جديدا و هنا على سبيل المثال سقوط الإمبراطورية الرومانية ، ومن هنا فالمسيحيون آمنوا بأن محبة المسيح هي مفتاح التاريخ و لذا ينبغي على هؤلاء الناس أن يحققوا علاقة بين بعضهم البعض تمثل في علاقة محبة و مسؤولية و هذا من أجل الوصول إلى هذا المفتاح ألا و هو مفتاح التاريخ و بالوصول إليه لا بد أن تكون محبة المسيح صافية ، من كل أنواع الشرور .
المبحث الثالث : العناية الإلهية من منظور مسيحي.

لقد سادت فكرة العناية الإلهية معظم الحضارات القديمة ، « فلو أخذنا على سبيل المثال المصريين و البابليين و الآشوريين و الأكاديين و اليونانيين ، آمنوا بأن الإنسان جزء من هذا الكون و من ثم خاضع إلى قوانين مثله في ذلك مثل الكون ، و هنا علينا أن نشير إلى فكرة ، و هي أن بني إسرائيل قد خالفوا هته الشعوب حيث أنهم لم يسلموا بغير اليهودي في هذا الكون على اعتبار أنهم شعب الله المختار ، أي أن العناية الإلهية موجهة إليهم على وجه التحديد .²

وفي هذا اختلاف بين العناية الإلهية عند اليهود التي اعتبروها موجهة إليهم و فقط ، على غرار العناية الإلهية عند المسيح التي كانت معارضة لها في هته النقطة - شعب الله المختار - بحيث يقول المسيحيون بأن هته العناية الناتجة من عند الله موجهة إلى سائر الشعوب و لا فرق بين جنس و آخر في هذا الحق ، بدون النظر إلى صفات أو مميزات معينة ، أي أن كل الشعوب تتساوى أمام العدالة الإلهية و عنايته موجهة بصفة عامة لكل الأجناس.
إن الجدير بالذكر و هو أن فكرة العناية الإلهية كانت قديمة كما ذكرت لكن إذا تطرقنا على وجه الخصوص إلى هته الفكرة عند أفلاطون ، أي في الحضارة اليونانية ، فلو نظرنا إلى لاهوت أفلاطون نجده يتلخص في ثلاث عناصر وهي « أن الأول يقول بأنه هناك آلهة ، أما ثانيا فإن مهمة الآلهة هي الاهتمام بشؤون البشر و من المستحيل رشوتها أو شراء إرادتها الخيرة ، أما ثالث عنصر فهو يقول من المتناقض القول بأن الآلهة موجودة و لا تكثر بشؤون البشر ، فالإهمال و الكسل و التراخي رذائل لا تنسب للآلهة ، لا يمكن لله أن يهتم بالكليات دون

¹ رأفت الشيخ ، المرجع السابق ، ص 34 .

² المرجع نفسه ، ص 35 .

الجزئيات فالقانون الأفلاطوني يتمثل "الشبيه يجذب الشبيه" و هو القانون الإلهي الذي لا يفلت منه أحد.¹ إن لاهوت أفلاطون بدأ في كونه يقر بوجود آلهة و هته هي وظيفة الأولى ، و بعدها يقول أفلاطون بأن الآلهة مهمة ألا و هي الاهتمام بأمور البشر و هته الوظيفة الثانية أما آخر وظيفة فهو يرفض التناقض الذي يقول بأن الآلهة موجودة لكنها لا تبالي بشؤون البشر إذا وصف الآلهة بكل أنواع الفضائل و المميزات الفاضلة في حين أن الإهمال و الكسل لا يجب أن تنسبها للآلهة .

خلاصة ما يريد أن يقوله أفلاطون بأنه بمجرد وجود الآلهة فهي خيرة و إذا قلنا بأنها خيرة فإن هذا يعني أنها فاضلة و الفضيلة عكس الرذيلة و هته الأخيرة من صفاتها الكسل و الإهمال ، إذن لا ينسبان إلى الآلهة ، فطبيعة الآلهة خيرة و فاضلة إذن لا ينتج عنها إلا الأفعال الفاضلة ، أما عن ما قاله أفلاطون بخصوص "الشبيه يجذب الشبيه" فهذا يعني بأنه عندما يحصل مثل هذا الجذب فيصبحان متحدين معا ، بحيث يسلك الشبيه على نحو ما يتوقعه شبيهه .

بمعنى أنه إذا كان خيرا فسوف يعيش في صحبة الخير إذا اتخذ من الخير رفيقا له ، على عكس من ذلك إذا كان شريرا فسوف يعيش في صحبة الشر ، و في هذا نستعين بالمثل العربي القائل "الطيور على أشكالها تقع" و هذا القانون الإلهي الذي لا يفلت منه أي أحد حسب تعبير أفلاطون ، أي الرفيق الخير شبيه و العكس صحيح. ومن هنا أصبحت مقولة "الشبيه يجذب شبيهه" لها أصداء مألوفة في آذان المسيحية مثل لا أنت و لا أي شخص كان في أي وقت قادر على أن يفاخر بأنه أفلت من هذا النظام ، ذلك النظام الذي أقامته الآلهة ، و لا يمكن لأحد أن يعصيه أو يتمرد عليه ، بل لابد من احترامه بطريقة لا متناهية .²

وفي هذا يتبين لنا أن لاهوت أفلاطون كانت توجد لديه فكرة هامة ألا و هي أن القانون الإلهي هو الذي يختار لكل شخص أو بالأحرى لكل شبيه شبيهه ، أما عندما جاءت المسيحية فقالت بدلا من أن نتعامل مع عدد كبير من الصناعات - أي الآلهة - الذين حددوا مرة واحدة و إلى الأبد مستقبل عملهم ، نجد أنفسنا في حضرة إله واحد الخالق للكون و هو من الآن فصاعدا سيده ، و هو سيد غيور و عندما نرى أول الوصايا في الإنجيل أهمها جميعا وهي « عليك أن تحب الرب إلهك وتخدمه من كل قلبك وبروحك كلها »³

¹ إيتين جلسون ، المرجع السابق ، ص 201 .

² المرجع نفسه ، ص ص 204 - 205 .

³ المرجع نفسه ، ص 205 .

فيما سبق إشارة إلى أن هذا الإله الذي يكثر بشؤون البشر يجب علينا أن نحبه و نطيعه ، لأنه يعلم كل شيء أي أنه يعلم خبايا القلوب ، فهو إله عادل و لا يرضي بشيء غير الخير يصيب شعبه لأنه إله خير و لا ينتج منه إلا الخير .

وهكذا فإن فكرة العناية الإلهية اتخذت طابعا مسيحيا و ذلك بعد قيام المسيحية ، لأنهم اهتموا بهته المسألة كثيرا ، فحسب المفهوم الكنسي فإن النشاط الإنساني تسيره دائما العناية الإلهية ، و ما جميع أعمال الإنسان إلا أدوات في تنفيذ مشيئة الإلهية ، و يليه فإن عقلية العصور الوسطى الكهنوتية قد أعفت الإنسان من صنع تاريخه و ترك الأمر كله لله و ذلك توافقا مع تسليم الكاثوليكى بالمقدر و المكتوب .¹

انه بمجرد و جود الله الذي يتحكم في هذا الكون ، لا دخل الإنسان في أي شيء أو في أي فعل ما ، لأن عناية الله أدرى بكثير من الإنسان ذلك المخلوق الضعيف الذي هو وسيلة في يد الله ، فالله يخاف على الإنسان أكثر من خوف الإنسان على نفسه .

وتأكيدا على هذا ما جاء في إنجيل متى حيث يقول : « لذلك أقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون و بما تشربون ، و لا لأجسادكم بما تلبسون ، أليست الحياة أفضل من الطعام و الجسد أفضل من اللباس ؟ أنظروا إلى طيور السماء ، إنها تزرع و لا تحصد ، و لا تجمع و لا تحزن ، و أبوك السماء بقوته ، أستم أنتم بالأحرى أفضل منها ، و من منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذرعا واحدة ؟ و لماذا تهتمون باللباس ؟...؟ تأملوا سنابل الحقل كيف تنمو ، لا شعب و لا تعزل ، و لكن أقول لكم إنه و لا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها ، فإن كان العشب الحقل الذي يوجد اليوم و يطرح غدا في التنور يلبسه الله هكذا ، أفليس بالأحرى جدا يلبسكم أنتم يا قليلي الإيمان ؟...؟ »²

وبناء على ما جاء في هذا النص نستطيع القول بأنه لا يوجد أي مخلوق واحد لا تمتد إليه العناية الإلهية ، فإذا قلنا بأن الله يهتم بكل كبيرة و صغيرة في هذا الكون و على أن العناية تصل إلى أقل كائن في هذا الكون فما بالك عنايته للإنسان فالإنسان هو أهم حلقة عند الله و عناية الله لا بد و أنها واصله للإنسان بصفة مطلقة ، بحيث تسعى هته العناية إلى تحقيق الخير للأجزاء لأنها تحكم و تدبر الكون ككل بطريقة تجعل كل جزء هو خيرا بذاته ، أي أن يتمتع كل جزء من هذا الكون بالخير الممنوح له من طرف العناية الإلهية و يعيش وفقا لما أعطاه إياه الله .

¹ رأفت الشيخ ، المرجع السابق ، ص 35 .

² متى العشار : إنجيل متى ، (د ط) ، (د د) ، أورشليم ، 64 م ، الإصحاح السادس ، آية 25-30 . ص 29 .

إن كل ما نحتاجه لكي نصل إلى تصور دقيق عن طبيعة العناية الإلهية المسيحية ، و هي أن الله خلق الأشياء و نظمها و رتبها و فق غاية معينة ، ألا وهي الله نفسه ، فالقول بأنه يحكم العالم بعنايته الإلهية ، يعني ببساطة أنه ينظم الأشياء جميعا من وجهة نظره أي من زاوية علمه و محبته ، و ما دام قدرته مثل وجوده أي لا متناهية فهي تشمل جميع الموجودات الجزئية و الكلية ، فكل هته الموجودات منظمة و مرتبة حسب ما يريد الله لأنه هو مبدؤها و هو كذلك نهايتها و غاياتها .¹

بهذا تصبح كل الموجودات مردها إلى الله ، وبذلك يوجد اختلاف بين الوجود الإنساني والوجود الآخر أو بالأحرى الغير العاقل وهذه الأخيرة هي في خدمة الوجود الإنساني ، فكلا حسب غايته وبذلك ، « فإن الموجودات العاقلة موجودة و ذلك من أجل ذاتها ، أما بقية الموجودات فإنها موجودة من أجل الموجودات العاقلة ، و هذا شبيه بحالة الجيش الذي يكمن هدفه في بلوغ النصر ، و أولئك الذين يحققون النصر هم الجنود الذين يقاتلون ، و الخدمات المساعدة و كذلك الاحتياطي موجودة من أجل الجنود و هي تشارك في النصر من خلال الجنود وحدهم ، و تلك في حال نفسها مع الكون و الإنسان .²

من خلال هذا الطرح ، يتبين لنا وجود اختلاف بين سائر المخلوقات في عالم ، و بين الإنسان العاقل لأن هذا الأخير يمتاز بطبيعة الحال بعقله ، فالموجودات العاقلة تسيطر على أفعالها الخاصة عكس الموجودات الغير العاقلة ، لأن الإنسان العاقل هو الذي يستخدم بقية الموجودات لأنها موجودة من أجل الموجودات العاقلة ، في حين أن الإنسان لا يخضع لمثل هذه الموجودات ، بغض النظر على خضوعه للمشيئة الإلهية لأنها هي الوحيدة التي تحكمه هو و بقية الموجودات الأخرى الغير العاقلة .

ومن هذا المنطلق يقودنا الحديث إلى أن فكرة العناية الإلهية أخذت طابعا مسيحيا ، إلى أنها تأثرت باللاهوت اليوناني (أفلاطون) ، فلو نظرنا إلى هذا المصطلح - العناية الإلهية - نجده أيضا قد استخدم في العقيدة الإسلامية ، مع العلم بأن بعض الفرق و المذاهب الإسلامية كالمعتزلة و طوائف الصوفية رفضوا القول بالعناية الإلهية كعقيدة ، و مع أن الفرق الشيعة التي تؤمن بالمهدية كعقيدة أملا لا يقل عن أمل اليهود في أرض الميعاد ، و مع هذا فإن هته الطوائف و الفرق الإسلامية لم تقدم نظرية العناية الإلهية مطبقة على التاريخ و من هذا لن ترتقي إلا أن تكون فلسفة للتاريخ .³

¹ إيتين جلسون ، المرجع السابق ، ص 217 .

² المرجع نفسه ، ص 219 .

³ رأفت غنيمي الشيش ، المرجع السابق ، ص 75 .

❖ خلاصة :

في نهاية هذا الفصل نستطيع القول بأن العصور الوسطى كان لديها اهتماما كبيرا بالعديد من المجالات ، و خصوصا اهتمامها بالتاريخ و كذا اهتمامها بفكرة جد مهمة ألا و هي العناية الإلهية ، لأن العصور الوسطى كان لديها حس تاريخي و هذا الحس ناتج من الغاية التي يسعى إليها الإنسان ، ألا و هي الوصول إلى الله و الجدير بالذكر هنا أن المسيحية كانت ترجع كل الأمور إلى القدر و المكتوب ، فالتاريخ آنذاك كان قدريا حيث لا تنسب الأحداث لغير الله ، فهو الذي يتحكم في بنائها ، إلا أن أهم ميزة تقول بها الديانة المسيحية في تفسيرها للتاريخ و هي مولد السيد المسيح و من هنا آمنوا بأن محبة المسيح هي مفتاح للتاريخ ، ففكرة العناية الإلهية سادت معظم الحضارات القديمة ، لكن بظهور المسيحية أخذت طابع مسيحي ، لأن النشاط الإنساني بمجمله تسيره العناية الإلهية ، ولأن جميع أعمال الإنسان ما هي إلا أدوات في تنفيذ مشيئة الله ، و عليه فإن الإنسان في ظل العناية الإلهية فهو مسير و ليس مخير ، أي لا يستطيع صنع تاريخه ، و ذلك لأن هته المهمة لا تنسب إليه ، فهي تنسب إلى إرادة عليا أكثر مقدرة منه ، لذا فإن الديانة المسيحية ترفض القول بأن العناية الإلهية موجهة لأمة أو شعب بعينه ، بل هي شاملة لكل الشعوب ، و لا يوجد شعب اصطفاه الله على شعب آخر ، و عنايته شاملة لكل الأمم و ليست موجهة لفئة من الشعوب .

الفصل الثاني : تطور رؤية أوغسطين للتاريخ.

المبحث الأول : المسار الفكري للقديس أوغسطين .

المبحث الثاني : مفهوم التاريخ عند أوغسطين .

المبحث الثالث : منهج دراسة الأحداث التاريخية .

المبحث الرابع : التغير و التطور (أقسام التاريخ) .

❖ تمهيد :

إن التاريخ ليس مجرد سرد للأحداث التاريخية ومعرفة مختلف الحوادث وفقط ، بل إن موضوع التاريخ يتعدى ذلك إلى الكشف على أسباب وأوقات وكذا بيان حدود الظاهرة أو بالأحرى الحادثة التاريخية ، ونظرا للاهتمام المتزايد بهذا العلم ، أي علم التاريخ ، توجد مقولة راودتني ، وهي من يعرف التاريخ العام الذي سبقه يضيف إلى عمره عدد سنوات ذلك التاريخ ، وهذا تعبير على أن الإنسان مهما اطلع وقرأ تاريخ ما ، في كلتا الحالتين تحسب له ، إذ أن تفسيرات التاريخ اختلفت وأصبح كل فيلسوف يعبر عنه انطلاقا من زاويته ، بحيث نرى تفسيرات مثالية ، وأخرى مادية ، إضافة إلى تفسيرات أخرى راودت العقل البشري عبر الزمن ، ألا وهي التفسيرات الدينية، ففي العصور الوسطى حاولوا اليهود تفسير التاريخ بما يخدمهم ، إلا أن المسيحية جاءت ناقدة لهم ، دون أن ننسى بالذكر التفسير الإسلامي للتاريخ ، الذي كان له أيضا شأن كبير ، إلا أن ما يهمنا هنا التفسير المسيحي للتاريخ ، وهذا ما كشفنا عنه في الفصل الأول ، بقي علينا أن نذكره حسب صاحب مدينة الله ، القديس أوغسطين ، وهذا موضوع فصلنا ، بحيث أنه أعطي أهمية كبيرة للتاريخ ، وذلك بأنه وضع منهجا من شأنه الكشف والإطلاع على ملامح الحقيقة التاريخية ، وكذا نتعرف على مراحل التاريخ عنده ، دون أن ننسى حياته وأهميتها في بناء فكره ، وفي هذا التعرف على مختلف محطاته الفلسفية ، وانطلاقا مما سبق ذكره كانت الأسئلة لها نصيب كبير في دراستي لهذا الفصل فهي كالتالي : فيما تتمثل معالم التاريخ عند القديس أوغسطين ؟ وما هو المنهج الذي من خلاله نستطيع فهم الحادثة التاريخية ؟ وكيف قسم أوغسطين التاريخ ؟

الفصل الثاني : تطور رؤية أوغسطين للتاريخ .

المبحث الأول : المسار الفكري للقديس أوغسطين .

في هذا المبحث سنحاول أن نذكر أهم المحطات في حياة أوغسطين ، « يعتبر القديس أوراليوس أوغسطين ، قمة شاحخة في الفكر الوسيط ، أخذ عنه بكثرة و تقدير من أتى بعده في ذلك الفكر ، و من تدين أو آمن ، و ليس غريبا أن نرى مفكرين من ميول متضاربة أحيانا ، يأخذون نصه الواحد عينه ليتألولوه بأشكال مختلفة ، و بحسب ما يرمون و ما ينفع نظراتهم و مقاصدهم ... و لد في تاغسطا (تعرف اليوم بسوق أهراس) في 13 تشرين الثاني 354م ، و تلك بلدة في نوميديا (بلدة في جزائر) ، كان السكان الأصليون وثنيون ، و معظم العائلات فيها صاروا من ذوي الثقافات اللاتينية و انخرطوا في الدين المسيحي ، كان أبوه باطريقيوس (patricus) ، طاعنا في السن ، و ثنيا ، أما أمه مونيكا فقد كانت سيدة طيبة ذات فضائل جمة ... »¹

« وعندما بلغ سن السادسة عشرة سافر إلى قرطاجة ، بحيث يعتبر هذا الحادث تاريخيا في شبابه ، إذا وقع و بقي مدة طويلة في طريق المفاسد و البحث عن اللذائذ ، مع زمرة من الرفاق الخلعاء ، و عصى والدته و أضرب عن نصائحها ، ثم عاش حياة زوجية لا شرعية مدة طويلة ، أنجب ابنا سماه إديودات و يقال بأنه كان يمتاز بذكاء مثار إعجاب الجميع ، و طالما تناقش مع أبيه في موضوعات عديدة جمعها القديس أوغسطين في "المعلم" . »²

و يصف لنا أوغسطين في كتابه الاعترافات عندما ذهب إلى قرطاجة بدقة واضحة و يقول « وصلت إلى قرطاجة فراحت مراجل الهوى الأثيم تهدر حولي ، و لم أكن عاشقا ، بيد أنني كنت أصبوا إلى الحب و أكره أن أكون متأخرا في هذا المضمار ، و بحثت و أنا المتيم ، عمن أحب و أهوى ... كان طعم الهوى يتعاضم على حين أستمتع بجسد حبيبي فأدنس معين الصداقة بإقذار الشهوة البهيمية ... و بلغت قيود اللذة مسرورا فشقيت و ذقت ألوانا من العذاب ، عذاب الجسد و الشبهات و الخوف و الخصومات و الغضب . »³

¹ جونو و بوجوان : تاريخ الفلسفة و العلم في أوروبا الوسطية ، ترجمة ، علي زيعور و علي مقلد ، (د ط) ، عز الدين للطباعة و النشر ، بيروت ، لبنان 1993 ، ص ص 273-274 .

² علي زيعور ، مرجع سابق ، ص ص 100-101 .

³ القديس أوغسطين : الاعترافات ، ترجمة الخوري يوحنا الحلو ، ط 4 ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان ، 1986 ، ص ص 41-42 .

لقد كان تعليم أوغسطين يشتمل على موضوعين ، الفلسفة أو علم الإقناع و علم البيان أو الخطابة ، في عام 373 قرأ محاورة شيشرون الشهيرة "هورثنسيوس" الذي يدافع فيها عن الفلسفة و يمتدحها بوصفها النشاط العقلي الوحيد القادر على إرشاد الإنسان للسعادة الحقة المتمثلة في اللذة العقلية ، حيث يقول أوغسطين في كتابه الاعترافات «...و إذا تبعت منهج التعليم المؤلف وصلت إلى كتاب "هورثنسيوس" لشيشرون قد اكتسب إعجاب الناس بفصاحته ، لا بمعانيه ، و هو يتضمن مقالة يبحث فيها الناس على درس الفلسفة فأثر في نفسيتي و حول إليك أيها الرب ، صلواتي و قلب رأسا على عقب جميع تمنياتي و آماني...وبقوة غريبة اشتهيت الحكمة الأزلية و أخذت أنفض و أعود إليك...وكم كنت مشتاقا لأن أتخلص من هذه الأمور الدنيوية وأطير إليك وما أدركت قيمة صنيعةك نحوى "فيك الحكمة" ... ومطالعة ذاك الكتاب أشعلت فيا حب الحكمة»¹

بقدر دور شيشرون في حياة أوغسطين و محبته للفلسفة و الحكمة ، زاد تأثر أوغسطين و تعلقه بالله لأنه كما قال "فيك الحكمة" بيد أن هته الحكمة تشعر الإنسان بالسعادة و اللذة العقلية و هذا ما سعى إليه أوغسطين من خلال ملامح فلسفته لأننا إذا تطرقنا إلى ملامح هته الفلسفة لوجدنا بأنها نابعة من واقع تجربته الحية ذلك لأن فلسفة العصور الوسطى (الفلسفة المسيحية)، تهتم بالعمل و الإخلاص .

إن البحث عن السعادة هو الهدف الذي سعى إليه القديس أوغسطين « فالسعادة التي بحث عنها القديس أوغسطين هي السعادة نحو الله ، والفلاسفة في بحثهم عن السعادة لم يصلوا إليها كاملة بل نالوا قبسا منها و اعتقدوا خاطئين أنهم نالوها كلها و من هنا تنشأ الأخطاء و الأضاليل ، إذ عجز العقل في الوصول إلى الحقيقة المطلقة ، و من هنا كان بحاجة إلى من يساعده ألا و هو الله حيث يرى أوغسطين بأن الحكمة لا تستطيع معرفتها إلى من خلال نعمة الله علينا...وليس ثم غير المسيحية هاديا و منيرا لأن المسيحية وحدها هي التي تقدم الحكمة الكاملة و تقدم لنا الله في أعظم صورة.»²

و هذا يعني بصيغة أوضح أن الله هو مصدر الحكمة و للوصول إليه يمتلك الإنسان تلك الحكمة و بهذا يكون قد تحصل على الهدف المنشود لدى أوغسطين ألا و هو السعادة . وإن تحصل على هته الأخيرة اكتسب لعقله لذة لا نهاية لها .

¹ القديس أوغسطين ، المصدر السابق ، ص 45 .

² كامل محمد محمد عويضة : أوغسطين ، فيلسوف العصور الوسطى ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1993 ، ص 36 .

كما عاد أوغسطين من قرطاجة بعد أن أنهى دراسته في القانون و إطلاعه على كتب شيشرون « عاد إلى مسقط رأسه ، و ذلك بعد وفاة أمه مونيكا ، التي كانت ذات تأثير كبير عليه ، و عندها تبرع أوغسطين بجزء من أملاكه للكنيسة ، و بجزء آخر للفقراء و لم يحتفظ لنفسه إلا ببيت جعله مكانا للعبادة و لجماعة من المتعبدین من أنصاره ، وزع أوقاته بين العبادة و فلاحه الأرض و عاش عيشة الرهبنة ثلاث سنين ، ثم انتشر صيته في الأنحاء المجاورة حتى أنه في سنة 391 أثناء رحلته إلى هيبو Hippo (غرب تونس) طلب الأهالي من أسقفهم أن يعين أوغسطين كاهنا يرعاهم ، فأجابهم الأسقف إلى طلبهم و بعد خمس سنين توفي الأسقف فاقترح الشعب لأوغسطين فتولى نشر الإيمان و الدفاع عن المسيحية باللسان و القلم خمساً و ثلاثين سنة و ظل يمارس هذه المهنة حتى وفاته في أيونيا (عناة حالياً) في 14 آب 430م.¹

» والشيء المهم لفهمه فهما حسنا هو تاريخ تطوره الداخلي ، و لن نفهم حقاً ما كان يجري في عقل أوغسطين ، ما لم ندرك أنه كان يعرف الإيمان المسيحي و الكتاب المقدس طوال حياته و إن لم يلجأ إليهما إلا نادراً في مراهقته و رجولته الأولى ، و لم يتعمد و لم يمارس الديانة المسيحية حتى في زمن انقلابه الفكري ، مع ذلك فقد سبقت معرفته بالمسيحية معرفته بالفلسفة ، و لم يتحرر ذهنه من تأثيرها تحرر كلياً قط ، كما أن من الضروري لكي نفهم فكره ، أن نتذكر أنه اعتنق المانوية* لفترة من الزمن ، معتقداً أنها تعطى أفضل تفسير ممكن للعالم بحيث أنها تنظر إلى الخير و الشر باعتبارها قوتين إيجابيتين مستقلتين يتعارضان و يتشابكان في صراع لا ينتهي²

وفي هذا ندرك بأن أوغسطين كان ذا معرفة بالديانة المسيحية والكتاب وذلك من خلال أمه مونيكا ، إلا أنه لم يقبل عليها ، بحيث اعتنق المانوية التي كانت تنظر إلى فكرة الخير والشر في صراع استمراري دون نهاية ، وأنه كان معتقداً بأنها تقدم أحسن تفسير للكون وبذلك فلا داعي لدراسة الكتاب المقدس ، وبقي على ذلك الأمل راجياً بذلك أن تكون المانوية منير الهداية له ، وهذا ما يتغير فيما بعد معه وينقلب فكره .

¹ إمام عبد الفتاح إمام : الفيلسوف المسيحي و المرأة ، ط 1 ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1996 ، ص 114 .

* المانوية : مذهب (ماني) الفارسي الذي عاش في القرن الثالث للميلاد ، و عمل على التوفيق بين المسيحية و الزرادشتية ، قال أن للعالم مبدئين أحدهما النور و هو مبدأ الخير و الآخر الظلمة ، و هو مبدأ الشر و كل مبدأ من هذين مستقل عن الآخر و منازع له (راجع ، جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ج 2 ، ص 314) .

² أرمسترونغ : مدخل إلى الفلسفة القديمة ، ترجمة سعيد الغانمي ، ط 1 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 2009 ، ص ص 266-267 .

ومن هنا طفق عقله وبدأ يقرأ الأفلاطونيين المحدثين ، لاسيما أفلوطين* « و كان أفلوطين هو الذي أقنعه أن الله روح ، و ليس جسدا نورانيا و قد بقى دائما يشعر بالامتنان لهذا الاعتناق من خيالات المانويين الساذجة و أوهامهم... بحيث أن الفلسفة الهيلينية الوحيدة التي أثرت باستمرار في أوغسطين هي أفلاطونية أفلاطون ، بحيث أنه تعرف على فكر أفلوطين في حين كان أيضا يكتسب معرفة أعمق بالمسيحية لم يمتلكها من قبل باستماعه المنتظم إلى مواعظ القديس أمبروز و في هذه الفترة بدأ يقرأ بعض المقالات القليلة "التاسوعات" (وبالتأكيد قرأ "عن الجميل" ومن المرجح أنه قرأ أيضا حول الأقاليم الثلاثة الرئيسية) في الترجمة اللاتينية ماريوس فكتورينوس و كان هذا الأخير معلم بلاغة اهتدى إلى المسيحية أيضا في هذا الوقت في روما ، وقام بمحاولة عازما على تطبيق مبادئ فلسفة أفلوطين لإضاءة العقيدة المسيحية .¹

ومن خلال قراءة أوغسطين لرؤية فكتورينوس التوفيقية بين فلسفة أفلوطين و العقيدة المسيحية « طور أوغسطين إطلاعه على أفلوطين بحيث أنه أدرك الاتفاق بين تعليم أفلوطين و تعليم الكتاب المقدس و توافقهما هذا على أن الله روح محض ، مجردة عن المادة تماما ، و في فترة وجيزة لاحقة أدرك أيضا الاختلافات الجوهرية الموجودة بين الأفلاطونية المحدثنة عند أفلوطين و المسيحية ، لكن أوغسطين لم يتخيل أبدا عن النظرة القائلة بمقدار كبير من التوافق بين أفلوطين و المذهب المسيحي .²

بعد اطلاع أوغسطين على المانوية ، إلا أن هته الأخيرة لم تقنعه فغير فكره متجها بذلك إلى الأفلاطونية المحدثنة وبالتحديد أفلوطين ، وفي هذا أدرك مدى التوافق الحاصل بين كل من الكتاب المقدس وتعاليم أفلاطون ، وحاول بذلك أن يفسر الكتاب المقدس انطلاقا من تعاليم أفلوطين ، وبهذا أصبح هم أوغسطين الوحيد كيفية الدفاع عن العقيدة والكتاب المقدس وذلك بمختلف الوسائل ، وبهذا يكون قد اكتشف الخطأ الذي وقع فيه وهو في إطلاعه على المانوية بمختلف أشكالها وبما فيها من تعاليم ، حيث أنه اقتنع بالكتاب المقدس الذي يري فيه مختلف المرامي والمكاسب للبشرية جمعاء .

* أفلوطين : (207/203 م) فيلسوف يوناني ولد في كامبانيا و كان المفكر أكثر تمثيلا للقرن الثالث لأنه جمع في شخصه أرفع تقاليد العالم القديم ، رومانيا بمدرسه التي ازدهرت حسب تعبير أوغسطين الذي كان يقدره على سائر اليونانيين في روما عام 244 إلى عام 269 (راجع، جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة ، ط3 ، دار الطليعة للطباعة و النشر ، بيروت ، لبنان ، 2006 ، ص 76) .

¹ أ ، ه ، أرستونف ، المرجع السابق ، ص ص 267 – 269 .

² المرجع نفسه ، ص 269 .

➤ مصنفاته :

« بدأ أوغسطين الشروع في الكتابة بعد قراءة "الكتب الأفلاطونية" فكان أول من عالج مسألة اليقين لأنه اعتبرها المسألة المقدسة على سائر المسائل ، و هذا موضوع كتاب "الرد على الأكاديميين" ثم نظر في "الحياة السعيدة" التي قال شيشرون أنها الغاية من الفلسفة ، و نظر في "خلود النفس" و كان موضوعه الرئيسي الأسس العقلية للإيمان.¹»

« ولما عاد إلى وطنه وجه همه إلى مناهضة المبتدعة ، فكان من أثر ذلك ، كتاب "أخلاق الكنيسة الكاثوليكية و أخلاق المانويين" ، و كتاب "سفر التكوين ردا على المانويين" و كتاب "في الحرية" ثم خطر أن يترجم حياته و يبين كيف قاده الله من الظلمة إلى النور فوضع كتاب "الاعترافات" (حوالي سنة 400) ، و هو مشهور في الأدب العالمية لسمو أسلوبه ، و قوة تأثيره و دقة التحليل النفساني ، و عمق النظريات الفلسفية²»

إن من أهم مصنفاته بعد ذلك كتاب "الثالوث" في خمس عشرة مقالة (400-416) يشرح فيها العقيدة و كذلك "شرح سفر التكوين" يتصل بالفلسفة كذلك ، و كما فتح البرابرة روما سنة 410 ، استولى على العالم القديم ذهول عميق ، لأن الاعتقاد العام كان أن روما لا تقهر و يقال الوثنيون إن الآلهة غضبوا على المدينة الكبرى و تخلو عن نصرتها لتهاونها في الشعائر السلفية و انتشار المسيحية في أرجاء الإمبراطورية ، فأخذ أوغسطين القلم برد عليهم ، فاتسع أمامه مجال القول حتى انتهى إلى كتاب جامع في فلسفة التاريخ وهو كتاب "مدينة الله" بدأه سنة 413 و فرغ منه سنة 426 حيث خصص المقالات العشر الأولى لنقد الوثنية بكل معتقداتها و أخلاقها و مذاهبها الفلسفية ، المقالات الإثنتي عشرة التالية للتاريخ العام و مغزاه ، و قبل وفاته بثلاث سنين رأى أن يعود إلى مؤلفاته يراجعها و يثبت حكمه الأخير فيما تضمنت من آراء و إقرار أو رفض أو تصحيحا فكان ذلك من كتاب "الاستدراكات أو المراجعات"³

إن مؤلفات القديس أوغسطين لقيت رواجاً كبيراً في جميع الأوساط آنذاك ، لأنها كانت تمتاز ببلاغة عالية وأسلوب راقٍ ومرهف ، وكل من آمن واعتقد بالمسيحية لابد وأن يكون بدراية تامة بكتب أوغسطين والدليل على ذلك أن معظم الفلاسفة من بعده كانوا ذا خلفية ومرجعية أوغسطينية من شأنها أن تساعد في نشر فكرهم .

¹ يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط ، (د ط) ، مؤسسة هنداوي للعلم و الثقافة ، القاهرة ، (د ت) ، ص 28 .

² المرجع نفسه ، ص 28 .

³ المرجع نفسه ، ص 28 .

المبحث الثاني : مفهوم التاريخ عند القديس أوغسطين .

يري أوغسطين أن « التاريخ يدور حول كل من المؤقت و الأبدى* ، فالله أبدى وهو خالق الزمن ، ولا يجوز فهم الأبدى ولا وصفه من وجهة نظر المؤقت ، فالله موجود وحال في الزمان كله ، مثلما هو أبدى ، والزمن وان لم يمكن فهمه بمفاهيم الذهن ، فمن المقطوع به أنه مما يمارسه الإنسان .¹ »

ولكي تتضح لنا الأمور أكثر علينا أن نعرف الزمن عند أوغسطين ، ولا نفهم هذا الأخير إلا إذا أركنا نقطة هامة ألا وهي تأكيد أوغسطين علي أنه « بعد سقوط روما على يد البرابرة القوط ، أصبحت المسيحية هي الدين الرسمي للدولة ، أي توحدت مع السلطة السياسية ، أي أصبحت تشاركها المسؤولية ولذا سارع خصومها باتهامها بأنها سبب سقوط روما ، فقد كانت هذه قوية منتصرة في زمن الوثنية فلا بد أن اعتناقها للمسيحية هو سبب الضعف الذي ألم بها ، وكان الحل الوحيد أمام أنصار المسيحية والمدافعين عنها هو اللجوء لتفسير الحدث بما يبرئ المسيحية ، وذهب أوغسطين إلى أن سقوط روما ما هو إلا سقوطها كدولة ولكنه ليس سقوطها باعتبارها تجسد مدينة الله .² »

وبذلك فأوغسطين ميز بوضوح بين « كيانين مختلفين جوهريا ، ومتعارضين وإن كانا متزامنين ، كان لابد من اعتبار أن الحدث الواحد -وهو سقوط روما- ينتمي في الحقيقة لتاريخيين ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية وتاريخ مدينة الله، وأن له دلالة مختلفة في كل تاريخ من هذين التاريخيين ، زمان واحد وتاريخان أو ازدواجية تاريخية ، ومن هنا فالزمان هو الإطار أو هو المجرى الواحد الذي يجري فيه التاريخان ، ولأن الإطار واحد أو المجرى واحد فالتاريخان مرتبطان أشد الارتباط بالرغم من تباينهما وكأتهما وجهان لعملة واحدة .³ »

* الأبدى : الأبد في اللغة ، الدهر والدائم ، القديم والأزلي والجمع ، آباد وأبود وهو في الاصطلاح الزمان الذي ليس له ابتداء ولا انتهاء أو المدة التي لا يتوهم انتهاءها بالفكر والتأمل أو الشيء الذي لانهاية له ، ولا فرق بين الأزل والأبد بالنسبة إلى الله تعالى ، لان أبده عين أزله ، وأزله عين أبده، (راجع

جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ج1 ، ص 29) .

¹ رأفت الشيخ ، مرجع سابق ، ص 38-39 .

² زينب محمود الخضيرى : لاهوت التاريخ عند القديس أوغسطين ، (د ط) ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1997 ، ص ص 41 -

42 .

³ المرجع نفسه ، ص 42 .

من خلال ما أشرت إليه في المواضع السابقة ندرك بأن التاريخ بالمفهوم الأوغسطيني هو علاقة وطيدة بين كل من مدينة الأرض (وهي التي شبهها بالإمبراطورية الرومانية)، ومدينة الله أو السماء ، فالتاريخ بهذا المفهوم يدور بين كل من المؤقت-أي ما هو حاصل في مدينة الأرض- ، والأبدي-أي ما هو حاصل في مدينة الله- ، فأوغسطين ذكر نقطة هامة وهي تعريفه للزمن ، إذ قال بأن هناك زمن واحد وتاريخان أو ازدواجية تاريخية ، ومن هذا المعنى ، « فالزمن الذي يقصده أوغسطين ... هو عصر ما بعد الخطيئة وحتى اليوم الآخر وما قبله وما بعده هو الأبدية ، وفي هذا الزمن يتحقق كل من تاريخ مدينة الله ومدينة الأرض . »¹

ومعني هذا أن الزمن هو تلك الفترة الممتدة بين وقوع آدم في الخطيئة إلى اليوم الآخر ، وما قبل آدم وما بعد اليوم الآخر ، يمثلان بذلك الأبدية والأزلية.

وهذا ما أشار إليه أوغسطين في كتابه مدينة الله ، تعبيرا عن تزامن الخلق والزمن ، إذ يقول ، « إن كانت صفة الزمن والأبدية التي يعرفان بها حقا ، هي إلا يكون الزمن دون تحرك متغير وان الأبدية ترفض التغير ، فمن ذا الذي لا يرى أن لا مجال لوجود الزمن إذا لم يكن من خليفة تتغير بواسطة الحركة ؟... وعليه فإن الله الذي لا تتغير فيه الأبدية ، لكونه خالقا للزمن ومنظما له ، كيف نقدر أن نقول انه خلق الكون بعد الزمن ، إن لم نقل بوجود خليفة قبل الكون تحدد بحركاتها مجري الزمن ؟؟... مما لاشك فيه أن العالم لم يخلق في الزمن بل مع الزمن ، لأن ما يتم في الزمن يتبع أو يسبق زمنا ما ... »²

وفي هذا إشارة إلى أن الزمن خلق مع الكون ، أي أنهما متلازمان ، ولا مجال للقول بأن الكون خلق بعد الزمن ، لأننا لو قلنا هذا ، يعني أننا نقول بوجود خالق آخر هو الذي خلق الزمن ، وهذا غير ممكن ، لأن خالق الكون هو نفسه خالق الزمن ولا وجود للأسبقية ، فالزمن والكون خلقا معا .

لكن أوغسطين من الذين لعنوا بشدة الزمان فهو يقول ، « في هذا العصر الفاسد وهذه الأيام السيئة ، حيث تكسب الكنيسة من خلال تدهورها الحالي عظمتها في المستقبل ، فإن كثيرا من المغضوب عليهم يختلطون بالخيرين، وأولئك وهؤلاء يجتمعون في الشبكة الإنجيلية فيسبحون في هذا العالم مختلطين كما يسبحون في البحر. »³

¹ زينب محمود الحضيبي ، المرجع السابق ، ص 42 .

² القديس أوغسطين : مدينة الله ، ترجمة الخور أسقف يوحنا الحلو ، المجلد 2 ، ط2 ، دار المشرق ، بيروت ، 2007 ، ص 13.

³ نقلا عن ، زينب محمود الحضيبي ، المرجع السابق ، ص 43 .

وفي هذا الإطار وكما ذكرته سابقا ، بخصوص مسألة الزمن ، الممتد بعد وقوع الخطيئة إلى يوم الحساب ، ما هو إلا تمثيل لمختلف أنواع الشرور ، فالناس الذين اقترفوا فعل الخطيئة ، يختلطون مع الناس الخيرة ، وهذا ما يؤدي إلى هلاك البشرية وهذا طبعا حسب تعبير أوغسطين .

انطلاقا من هذا كله يمكننا أن نلخص مفهوم التاريخ عند أوغسطين في أمرين ، ألا وهما التاريخ باعتباره علما خادما للعقيدة ، وكذا من خلال كشفه عن معنى الحقيقة التاريخية .

✓ أولا : التاريخ علم خادم للعقيدة .

إن التاريخ بوصفه علما ، شغل تفكير أوغسطين ، ولهذا فهو يحلل لنا هته المسألة من خلال أن الرجل بوصفه رجل دين هدفه الدفاع عن العقيدة وتقديم مختلف الأمثلة التاريخية ، وهذا بالضرورة من أجل إثباتها ، من منطلق هذا وظف التاريخ من أجل إثبات الحدث الديني العقائدي ، ونذكر هنا مثال وهو لو أردنا التمييز بين المسيحية والوثنية ، فهته الأخيرة دعامتها الأسطورة ، في حين الأولى دعامتها التاريخ ، وبهذا نستطيع أن نفهم المسيحية وذلك من خلال توظيفها للتاريخ أو بالأحرى اعتمادها على التاريخ ، لأن الاعتماد على التاريخ يساعدنا في فهم مختلف المسائل المسيحية ، على العكس من الوثنية التي لم تعتمد على التاريخ ، وفي هذا صعوبة الفهم¹.

ولكي نفهم أكثر رؤية أوغسطين بهذا الشأن وهو من خلال الأمثلة التي اعتمدها بوصفها أدلة تاريخية في إثبات العقيدة ، وذلك عبر إدراج التاريخ المقدس في التاريخ الإنساني ، وإلا أصبح هذا الكتاب المقدس أشبه بالقصة الأسطورية وهذا ما ظهر لنا من خلال « ولادة عيسى فلقد ولد في عهد بونس بيلات ، وكذا قيام عيسى بعد الصلب ، وقام في اليوم الثالث لموته في زمن الإمبراطور أغسطس وكان ذلك على أرض فلسطين ، والنبوءة بظهوره فلقد كانت الكثير من التوقعات تنبأ بها الأنبياء والملوك بمجيء المسيح »².

ومن خلال ما سبق ذكره نستطيع القول بأن كل حدث تاريخي يقابله في ذلك حدث عقائدي ومن ثمة يصبح كل حدث تاريخي يساعد على إثبات موثوقية العقيدة ، فالتاريخ مهمته الدفاع والمحافظة على العقيدة .

¹ عامر عبد زيد وآخرون : فلسفة التاريخ ، جدل البداية والنهاية والعود الدائم ، ط 1 ، ابن النديم للنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2012 ، ص 87 .

² المرجع نفسه ، ص 88 .

أما ما قدمه أوغسطين أيضا لفن التاريخ غير غرس المسيحية في التاريخ العالمي الشامل وإدراج التاريخ المقدس كله في هذا التاريخ الشامل ، فهو الدفاع عن المسيحية ضد خصومها ، ولذا نلاحظ أن أوغسطين عند استخدامه للتاريخ ، فكان هذا لمحاربة المذاهب المارقة مثل "الدوناتية والبلاجيوسية" ، إذن فالتاريخ وسيلة لمعرفة كل الفرق المنحرفة ، وفي هذا أكد أوغسطين على ضرورة الرجوع إلى الكتاب المقدس الذي بفضل ينكشف لنا عن المعنى الحقيقي للتاريخ.¹

وكما جعل أوغسطين التاريخ يفيد العقيدة جعلها هي أيضا تفيده ، « فالعقيدة هي التي تقدم لنا تفسيراً كلياً للتاريخ من خلال أنها تخبرنا عن بداية وتوضح صيرورة وتحدد نهاية ... فهي بذلك تقدم هذا بفضل مفاهيمها أي مفاهيم العقيدة ، ولولا هته المفاهيم لظل التاريخ بلا دلالة وبلا رابط بين أجزائه ، فالعقيدة بهذا ، هي التي تخبرنا بأن العالم بدأ بالخلق وبأنه سينتهي باليوم الآخر ، وبأن أهم أحداث هذا التاريخ هو السقوط (سقوط آدم من الجنة طبعاً) وبأن الله تجسد في يسوع ، وكذا بأن الكنيسة لا بد وأن تنمو ، إضافة إلى ذلك أن المسيح سوف يعود، وبأن كل هذه الأحداث تدور في ظل العناية الإلهية ويحركها الصراع بين الخير والشر ، للذين يرمز لهما بالمدينتين ، مدينة الله ومدينة الأرض .² »

بعدما جعل أوغسطين التاريخ بمثابة علماً خادماً للعقيدة ، وذلك من خلال أن التاريخ باعتباره علماً فمهمته هي الدفاع عن العقيدة ، جعل هذه الأخيرة أيضاً تفيده ، ومن هذا فالتاريخ علم خادماً للعقيدة ، والعقيدة مفسرة للتاريخ .

✓ ثانيا : الحقيقة التاريخية .

إن التصور الذي قال به أوغسطين في علاقة التاريخ بالعقيدة له أثر كبير على مفهوم الحقيقة التاريخية ، فلقد كانت هته الأخيرة الشغل الشاغل لأوغسطين من أجل الكشف عنها ، ففي كتابه خواطر فيلسوف في الحياة الروحية يقول ، « طالع إذا الكتاب المقدس بإيمان وأطمئن إلى حقيقته ، إنه لفي أعلى مقام من السلطة السماوية، تعلم حقا ما هو مقبول وأعلم ما يجب إصلاحه أو شجبه ، ولن تجد فيه الحقيقة وحدها بل الخطة التي تنعش

¹ زينب محمود الخضيري ، المرجع السابق ، ص 58 .

² المرجع نفسه ، ص 59 .

النفوس وتحددها ... ولكن افهم قبل كل شيء أنه لا يجوز ، لك أن تضطرب إذا لم تفهم الكتاب المقدس ... بل أصبر باحترام إلى أن ينكشف أمامك معناه الخفي ...¹

انطلاقاً من ما ورد في هذا النص يكشف لنا أوغسطين عن المعنى الحقيقي والهدف الرئيسي للكتاب المقدس ، بحيث أن هذا الأخير هو الوحيد الذي يتوفر على هته الحقيقة التاريخية ، فالحقيقة هي ما وردت فيه ، ولا وجود لحقيقة تاريخية أخرى خارجة عنه ، بحيث أن الكتاب المقدس لا يقف عند الكشف عن الحقيقة وفقط ، وإنما يضيف إليها الخطة التي بفضلها تستقيم حياة الإنسان ، وبذلك فالكتاب المقدس بطبيعة الحال لا يمكن فهمه بطريقة مباشرة ، وإنما علينا بالصبر لينكشف أمامنا المعنى الحقيقي ، فالقراءة الأولى للكتاب ليست كافية ، لأنها لا تكشف لنا إلا على المعاني الظاهرة التي يمكن لأي شخص فهمها ، وبذلك تكون كل قراءة إضافية بمثابة تحصيل جزء من تلك الحقيقة ، لذا فالاهتمام بالكتاب المقدس وما ورد فيه ، ينكشف لنا عن الوجه الأصح لتلك الحقيقة التاريخية .

ومن هنا يضيف قائلا « إن الحقيقة المحجوبة ضمن الأسرار لا تجذب إليها ، بواسطة خطاب رفيع لا ينصب على درسه من كان بطئ الفهم ، جاهلاً كما هي حال الفقير أمام الغني ، إنما تدعو بلغة بسيطة جميع الذين تغذيتهم بالحقيقة المكشوفة ، وتدرهم بواسطة الحقائق المخفية التي تبدو وكأنها مجموعة في مكان سري ... وبالتالي فلا تمل إلى الأضاليل ولا تتهم الكتاب إن لم تفهمه ... ارفع قلبك إليه لتفهم ما تقرأ ، ولا تقل الكتب المقدسة هي ألح حضوراً من الله ، بل هو ألح حضوراً منها...²

وفي هذا إشارة على أن هناك معنيين في الكتاب المقدس ، المعنى الظاهر والمعنى الخفي ، فالأول هو ذلك الذي يظهر للشخص عند قراءة الكتاب في الوهلة الأولى ، أما المعنى الخفي وهنا تكمن صعوبة الفهم ، لأن الحقائق المحجوبة والمخفية لا نستطيع استخراجها بسرعة ، حتى إن استطعنا الوصول إليها لا يمكن لنا فهمها مباشرة ، ومن هنا نبدأ في شتم الكتاب المقدس ، وهذا بدوره شيء رفضه أوغسطين ، لأنه لا يودي إلا نتيجة ، وبذلك قال ارفع قلبك إليه لتفهم ما تقرأ وهذا ما ذكر أعلاه ، فعند ممارسة فعل القراءة يجب على القارئ أن يتمعن في الكتاب ويوجه كل طاقته للوصول إلى المعنى الخفي ، أي الوصول إلى الحقيقة التاريخية ومن ثمة فهمها ، فعملية الفهم بهذا الصدد لا تأتي بسرعة وسهولة لا بد من صبر وقوة إرادة وهته الأخيرة هي التي تساعد في الفهم ، لأن

¹ القديس أوغسطين : خواطر فيلسوف في الحياة الروحية ، ترجمة الخوري يوحنا الحلو ، ط7 ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان ، 2004 ، ص 73 .

² المصدر نفسه ، ص ص 74 - 75 .

الفهم بدوره عملية صعبة ولا يمكن الوصول إليها ببساطة ، وهنا إشارة على فهم الكتاب المقدس وليس الفهم بالمطلق ، لأن الفهم في الكتاب المقدس لا بد وأن نكون حريصين على عدم الخروج من إطار النص .

المبحث الثالث : منهج دراسة الأحداث التاريخية .

إن الوصول إلى الكشف عن أي حدث تاريخي واستخراج معناه الحقيقي لا بد وأن يقوم على جملة من الخطوات ، فأوغسطين بدوره وضع خطوات من شأنها أن نصل من خلالها إلى دراسة الأحداث التاريخية دراسة دقيقة وهي كالتالي :

✓ أولاً : سد الثغرات التاريخية .

حاول أوغسطين أن يكشف مختلف الثغرات التاريخية الموجودة في الكتاب المقدس ، وأول ثغرة صادفها في دراسته وهي بخصوص أبناء آدم ، حيث أن « الكتاب المقدس لم يذكر سوى قابيل وهابيل وشيث من أبناء آدم ، فهذا غير مقبول عند أوغسطين لأن العقل لا يمكن أن يقبل بمثل هذا التصور.¹ » ، حيث يستعين ، بذكر السفر الذي يقول ، « وكانت أيام آدم بعدما ولد شيئاً ثمانين سنة وولد بنين وبنات.² »

إن الثغرة المتعلقة بأبناء آدم ، يبررها أوغسطين بأن « الكتاب المقدس لم يكن يعنيه حصر كل ذرية آدم بل كان يعنيه وحسب بأن ذرية آدم التي تنتهي في تسلسلها إلى إبراهيم أبي الأنبياء.³ »

في هذه الخطوة يبين لنا أوغسطين بأن الكتاب المقدس حتى وإن وجدت فيه ثغرات يجب على المؤرخ أو الباحث أن يحاول تغطية الخطأ أو تلك الثغرة التي واجهها ، وذلك لحفظ جلال الكتاب المقدس .

✓ ثانياً : إعادة ترتيب الأحداث .

ومن خلال هذه الخطوة سعى أوغسطين ، للكشف لنا بأن الكتاب المقدس لم يلتزم بسرد الأحداث التاريخية بشكل متسلسل ، الأمر الذي دعي إلى ضرورة بذل جهد من طرف المؤرخ في إعادة الترتيب للأحداث . ويذكر لنا مثال وهو ، « "بنوة عابر لسام" التي يقول فيها أن عابر هذا لا يعقل أن يكون ابناً لسام بل هو أحد أفراد

¹ زينب محمود الخضيرى ، المرجع السابق ، ص 62 .

² نقلاً عن ، زينب محمود الخضيرى ، المرجع السابق ، ص ص 62- 63 .

³ المرجع نفسه ، ص 63 .

الجيل الخامس من ذريته ، وما ذكره الله قبل سائر الذرية إلا ليؤكد على أن العبرانيين الذين اشتق اسمهم من عابر ينتسبون لسام .¹

من خلال هذا المثال ، يتبين لنا بأن الكتاب المقدس لا يذكر الحقب التاريخية بالتفصيل ، لذا على المؤرخ أن يسعى لكي يعيد ترتيب الوقائع ويرجعها إلى سياقها الأصلي وذلك بإعادة كتابة التاريخ .

✓ ثالثاً : النقد التاريخي .

أما بخصوص هته الخطوة فأوغسطين يرفض بعض الروايات في الكتاب المقدس ، وذلك لعدم اتفاقها مع المنطق وفي هذا ضرب لنا مثال وهو بخصوص ما رواه الكتاب عن ، « بناء قابيل أو ابنه مدينة بأكملها ، وعلل أوغسطين رفضه بأن المدينة بحكم تعريفها هي مجموعة من الناس تربط بينهم صلات اجتماعية وهو ما يتنافى مع كون الفرد الواحد هو الذي بناها .²

إلا أن أوغسطين يشير إلى نقطة مهمة ، وذلك يتبين لنا من خلال أنه ذهب إلى أن الأقرب إلى الصواب والشيء الذي يمكن للعقل تصوره وهو أن تكون عائلة قابيل قد تضخمت حتى أصبحت شعباً يمكنه أن يبني مدينة بأكملها ، وليس قابيل أو ابنه من بنو تلك المدينة ، وفي هذا حاول أن يجعل من اللامعقول -أي بخصوص قابيل أو ابنه في بناء المدينة- تبرير لمدى الدفاع والمحافظة على جلال الكتاب المقدس ، بالرغم من رفضه كل ما هو معارض للعقل والمنطق من الروايات التاريخية .³

فأوغسطين لم ينقد الكتاب المقدس نقداً ليس فيه رجوع ، وإنما حاول أن يجعل أيضاً لمختلف الروايات المنتقدة بطبيعة الحال من طرفه ، إلا أن يضع لها تبريرات من أجل المحافظة على قيمة الكتاب المقدس والانتقال به من اللامعقول إلى المعقول ، أي من الروايات التي تم نقدها والقول بأنها غير منطقية كما أسلفت الذكر ، إلى الانتقال بها إلى صورة المنطقية والمعقول ، وذلك بإبراز الحجج بحيث تكون هذه الأخيرة في صالح الكتاب المقدس ، ومن ذلك فعلية وضع الحجة ، من أجل تبرير مختلف الروايات التاريخية الموجودة داخل الكتاب ومن ثمة العمل على عقلنتها ووضعها في صورة منطقية ، من أجل الحفاظ على قيمة الكتاب المقدس ، إلا أن أوغسطين في حد ذاته

¹ عامر عبد زيد وآخرون ، المرجع السابق ، ص 90 .

² المرجع نفسه ، ص ص 90 - 91 .

³ زينب محمود الخضيرى ، المرجع السابق ، ص 90 .

أبرز مختلف الانتقادات والثغرات الموجودة في الكتاب المقدس ، وبذلك عدم تبيان الخطأ والضعف مسؤولية أوغسطين بحيث حاول أن يقيم الحجج التي تساعد الكتاب وليست لتهدم ما جاء فيه .

✓ رابعا : منهجه في تأويل الأحداث .

إن هذا المنهج هو الأفضل عند أوغسطين ، فهو يمثل أقوى خطوة عن الخطوات السابقة ، فبفضل هذا المنهج نصل إلى الحقيقة الباطنية ، فلقد برع أوغسطين في هذا وذلك من خلال اعتماده على التفسير الرمزي ، وبهذا اعتبر أهم هرمينوطيقي في العصور الوسطى ، بحيث أنه قدم مبادئ واضحة للتمييز بين نوعين من التفسير ، الظاهري والمعنى الباطني ، إلا أن أوغسطين يقول بالتفسير الباطني¹.

وقبل أن نتطرق لشرح هذا المنهج ، علينا أن نشير إلى نقطة هامة ، ألا وهي الأصول التي استمد منها أوغسطين هذا المنهج ، وما هو الشيء الذي أضافه واجتهد فيه القديس أوغسطين ؟ .

يظهر لنا هذا وذلك بعد اطلاعه على "هورثسيوس" ، لشيشرون كما ذكرتها سابقا ، والذي أشعل فيه حب الحكمة ، ولما أقبل أوغسطين على الكتاب المقدس ، فصدته سذاجة نصوصه التي رآها ليست في مستوى بلاغة شيشرون الذي كان يعرف بقوة بلاغته وأسلوبه المرفه ، الأمر الذي جعل أوغسطين يتحول إلى المانوية باحثا في ذلك عما يسعده ويوصله إلى الحقيقة ، ثم تحول إلى الأفلاطونية المحدثه باحثا عن الحكمة ، وبينما هو على هذا الحال ، استمع إلى احدي عظات القديس "أمبرواز" أسقف ميلانو ، حيث كان يفسر الكتاب المقدس مستخدما بذلك التأويل والمفاهيم الأفلاطونية المحدثه ، فأدرك أوغسطين بذلك أن الكاثوليكية هي الحقيقة².

إن أوغسطين بالرغم من تأثيره الشديد بشيشرون كان من الصعب عليه أن يقدم على إطلاع أو دراسة أي كتاب وذلك تخوفا من عدم اقتناعه بهم لأن شيشرون قد أخذ جل تفكير أوغسطين وبفضله أقدم على دراسة الحكمة وحين ما استمع إلى مواعظ أمبرواز وشرحه للكتاب المقدس أدرك بأن الكتاب عبارة عن حكم ومعاني خفية فانطلقا من هذا وبفضل استخدام منهج التأويل من قبل القديس أمبرواز ، أشعل في أوغسطين حب الإطلاع على الكتاب المقدس ككل وفهم معانيه التي كانت تبدو لديه -أي أوغسطين- أنها بلا معنى وذلك

¹ عامر عبد زيد وآخرون ، المرجع السابق ، ص 91 .

² زينب محمود الخضيرى ، المرجع السابق ، ص 64 - 65 .

ناتج من عدم قراءة النص قراءة باطنية وتأويلية، وبهذا سأحاول شرح هذا المنهج ، وبيان أهميته في عملية الوصول إلى فهم الكتاب المقدس .

إن الاتجاه الرمزي في تأويل الأحداث لقي اهتماما كبيرا لدى الآباء المسيحيين الأوائل وهذا ما قال به أوريجين* حيث يقول ، « نصادف شرائع أو أحداثا عديمة النفع وتتصف بالاستحالة من هذا النوع ، فإن علينا أن نتجنب تفسيرها الحرفي ، وأن نفحص المغزى الخلفي التي هي جديرة بأن تحتويه وكذا المعاني السامية الغامضة التي تتضمنها، وما يمكن أن يكمن وراء رمزيتهما من حقائق أكثر عمقا .¹»

من خلال ما قال به أوريجين نستطيع القول ، بأن القارئ عندما يحاول كشف معاني الكتاب المقدس أو حتى أي كتاب آخر ، فهو عندئذ يقف عند المعاني والأحداث في اعتقاده أنها بدون فائدة ولا تؤدي لنفع عند إطلاعنا عليها وذلك ناتج من قراءته الحرفية وتفسيره الحرفي ، الظاهر لها ، وذلك ما يؤدي إلى الحكم على أنها بدون فائدة، لكن يكمل أوريجين ويقول فإننا علينا أن نتجنب تفسيرها الحرفي ، وذلك من خلال فحص معناها الداخلي والكشف عن ملامحه الخفية لكي يحصل لنا فهمها على الوجه الأصح ، ففهم الحدث في بدايته وفي باطنه يعطي لنا فهما أكثر عمقا من الفهم الخارجي الذي نحن في غنا عنه .

تجدر الإشارة هنا إلى أنه بعدما يمر النص بالتفسير اللغوي والتحقق من شرح المعاني والتي تحتاج إلى عالم لغوي، يقول أوغسطين تأتي المرحلة اللاحقة وهي الاستعانة بمعارف متعددة علمية وفلسفية ، أي عندما نريد تفسير النص تفسيراً رمزياً ، ومن المسائل التي تناول فيها أوغسطين التأويل المجازي الرمزي ، وهو في خلق آدم ، بحيث أنه تأول اسم آدم عندما وقف على دلالاته في اللغة العبرية بأنه يعني الإنسان على الإطلاق ، أي أنه يدل على الجنسين معا أي ذكر وأنثى ، في حين لو قمنا بتفسير اسم آدم بالمعنى الحرفي فنقول أنه يشير إلى إنسان واحد ولا وجود لتعدد الأجناس .² وفي هذا دلالة على أن التفسير الرمزي هو الأحق في فهم النص ، والاستعانة بمعارف متعددة علمية وفلسفية من شأنها أن تقوي قوة فهم معنى النص ، وذلك من خلال الوصول بالفهم إلى المعنى العلمي والفلسفي الدقيق .

* سكوت أوريجين : (878/810م) فيلسوف ولاهوتي إيرلندي ، درس الفنون الحرة ، واللاهوت ، كان معتزلاً متقشفاً وكما اهتم بالأسطورة حيث

أثرت على شخصيته الغربية . (راجع ، جورج طرابيشي ، مرجع سابق ، ص 368 .)

¹ هاري المر بارنز : تاريخ الكتابة التاريخية ، ترجمة ، محمد عبد الرحمن برج ، مراجعة ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، ج 1 ، (د ط) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (د م) ، 1987 ، ص 68 .

² عامر عبد زيد ، وآخرون ، المرجع السابق ، ص 93 .

إذن منهج التأويل الرمزي ليس من إبداع أوغسطين ، بل أخذه عن أستاذه أمبرواز ، لكن دون أن ننسى مجهود أوغسطين في هذا الصدد ، وهنا أجب على السؤال الذي طرحته سابقا ، ألا وهو الشيء الذي أضافه واجتهد فيه القديس أوغسطين ، « بحيث أن هذا الأخير استخدم هذا المنهج -التأويل الرمزي- في دراسة التاريخ ، لأن الحقيقة التاريخية عنده كانت جزءا من الحقيقة المسيحية الكلية ، والمنهج الذي يصلح لتفسير الكل ، يصلح لتفسير الجزء ، ولكن معنى هذا أنه لم يهمل المعنى الحرفي الذي أخذه من مدرسة أنطاكية ، حيث أطلق أوغسطين في تأويلاته من فكرة أن المعنى الحرفي هو الأساس القوي لكل تفسير مجازي .¹»

من خلال ما ورد هنا نكتشف أن أوغسطين بخصوص منهج التأويل ، الذي أخذه من عند أستاذه أمبرواز وبهذا كان أوغسطين ، بطبيعة الحال له دور كبير متمثل في كونه استخدم ذلك المنهج في دراسة التاريخ ، وذلك من خلال أنه يري بأن الكتاب المقدس ما هو إلا تعبير عن تاريخ الديانة المسيحية ، بكل ما يتضمنه بخصوص مجيء المسيح وغيره من الأمور ، التي لها طابع تاريخي لا نستطيع الإغفال عنه ، وهذا لا يعني أن أوغسطين أهمل المعنى الحرفي ، بل جعله كمنطلق لفهم أي معنى باطني من خلال منهجه في التأويل .

ما أستطيع قوله من خلال عرضي لمختلف خطوات المنهج عند أوغسطين ، وهو أن تفسير الحادثة التاريخية لا بد وأن يكون بالاعتماد على منهج ، فهو بذلك يعتمد على خطوات فمثلا إن عجزت المناهج الثلاثة الأولى من سد الثغرات وإعادة ترتيب الأحداث والنقد التاريخي في تفسيرها للأحداث ، يلجأ أوغسطين إلى منهجه في تأويل تلك الأحداث ، بحيث أن هذا الأخير هو الأقوى عنده لأنه لا يقتصر على الفهم الخارجي الحرفي للحادثة التاريخية الموجودة في النص المقدس ، وبذلك استبطن ما في الداخل من خلال منهجه التأويل الرمزي ، الذي يصل بدوره إلى الحقيقة التاريخية الخفية وراء كل نص في الكتاب المقدس ، إن منهج التأويل من هذا كله هو الجدير بعملية الفهم الصحيح ، لأن في منهج أوغسطين حتى وإن وجد ثغرات أو انتقادات للكتاب وهذا ما قال به في بداية خطواته ، وهذا ناتج من سوء فهم للحادثة ، ومثال على ذلك إن وجدت ثغرة في الكتاب المقدس ، يقول انطلاقا من سياقه السابق ، لو أننا استخدمنا منهج التأويل في تلك الثغرة نكتشف بأنها ليست خطأ وإنما معلومة أو إشارة مخفية ، فكل من يري خطأ أو نقد فهو غير صحيح ، إنما عليه اللجوء إلى منهج التأويل لفهم المعاني الباطنية لذلك الخطأ .

¹ زينب محمود الخضيرى ، المرجع السابق ، ص 67 - 68 .

المبحث الرابع : التغير والتطور (أقسام التاريخ عند القديس أوغسطين) .

إن أوغسطين قد أبقى قبول نظرية الدورات المتكررة في التاريخ ، وذلك من خلال أنه يؤكد على « أن فكرة التجسد -أي تجسد الله في المسيح- لا تحدث إلا مرة واحدة في التاريخ ، وتشبيها بما يرويه الكتاب المقدس عن خلق الله للعالم في ستة أيام واستوائه على العرش للراحة في السابع ، وبذلك قسم التاريخ إلى سبعة أقسام ، بداية من آدم إلى الطوفان ، ومن الطوفان إلى إبراهيم ، ومن إبراهيم إلى داود ، ومن داود إلى الأسر ، ومن الأسر إلى ميلاد المسيح ، والعصر الحاضر ، و آخر قسم الذي يستريح فيه الله كما حدث في اليوم السابع ، ويمنحنا الراحة في ذاته . »¹

إلا أن أوغسطين من هذا المنطلق قد حدد مجرى العصور الستة على النحو التالي ، « فالمرحلة الأولى من آدم إلى نوح تمثل مرحلة الطفولة في مهدها الأول ، ومن نوح إلى إبراهيم مرحلة الصبا ثم مرحلة الشباب وذلك من إبراهيم إلى داود ، أما المرحلة الرابعة أي من داود إلى الأسر البابلي لليهود فهي ما أطلق عليها بمرحلة الرجولة ، في حين من الأسر البابلي يوحنا المعمدان ، العصر الوسيط أي العصر الذي يقع ما بين المجيء الأول للمسيح والمجيء الثاني فهي ما يسميها بمرحلة الشيخوخة ، أي العصر الذي يشيخ فيه العالم . »²

إلا أن هذه التقسيمات ، أضاف عليها أوغسطين تقسيمات أخرى فرعية ، وذلك من خلال محاولة ربط كل عنصر بما يليه ، وفي هته التقسيمات غير أوغسطين تعبيراته ، بحيث أصبح يستخدم القياس التمثيلي على الليل والنهار ، وصار لكل عصر صباحه وظهره ومساؤه ، وذلك إطار فترته الزمنية ، وينقشع ظلام العصر عن صباح العصر الذي يليه ، فأوغسطين يطبق هذا الاستخدام -أي القياس التمثيلي- بخصوص الليل والنهار على العصر المسيحي باعتباره عصر الشيخوخة (من الأسر إلى المسيح) الذي كان يحمل كل أمراض الشيخوخة ، في حين قال أوغسطين من خلال القياس التمثيلي ، بأن هذا العصر شأنه في ذلك شأن العصور الأخرى ، فقد بزغ فجر العصر السادس بيوحنا المعمدان وأشرقت شمس بتجسد المسيح ، وتوافق بذلك انتشار المسيحية مع انتصاف النهار إلا أن الاضطرابات التي شهدتها أوغسطين أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس ، يقول بأن المساء سيحل في

¹ ألبان ويدجري ، مرجع سابق ، ص 182 .

² بيريل سمالي ، مرجع سابق ، ص 39 .

وقت قريب وينقضي العصر السادس ، لكي يبدأ العصر السابع ، حيث ينتهي الزمن ، وهذا العصر الأخير سيكون علامة للانتقال من الزمن للخلود .¹

أي بمعنى أن جميع العصور التي قال بها أوغسطين في التاريخ ، شبيهة بأن تكون كعلاقة الليل بالنهار ، فكل عصر عندما يكون في زواله فهذا تعبير على ظلامه وهو بذلك يشبه الليل، في حين يكون العصر الذي يليه هو في إشراق وصباح تام وهكذا دواليك ، حتى ينتهي هذا الزمن وبذلك نكون قد انتقلنا إلى الخلود ، وهذا الأخير حصيلة أعمالنا .

وتأكيدا على العصر السابع الذي يستريح فيه الله ، ما ذكره أوغسطين في كتابه مدينة الله يشير إلى أن راحة الله هي يوم السبت وهي راحة الإنسان في الرب وبذلك يقول ، « وإذ يستريح الله من أعماله في اليوم السابع... إن استراحة الله هي استراحة من يسترحون فيه ، كما أن فرح البيت هو فرح من يفرحون به ، وإن كان سكانه مسرورين ، أليس من الحق أن نسميه فرحا ؟... فيقال مثلا "المسرح يصفق والبراري تخور" بدلا من قول "المشاهدون يصفقون في المسرح والثيران تخور في البراري"... هكذا كل رسالة فرحة تعني الفرحة الذي تعطيه لقراءها ، وعلى هذا النسق يقدم لنا النص الكتابي في استراحة الله استراحة لجميع الذين يسترحون فيه . هو ذاته يجعل نفسه راحة لهم ... إنها راحة تنتظرهم بعد الأعمال الصالحة ... وهي راحة تمثلها راحة السبت فرضتها الشريعة على شعب الله منذ القديم .² »

وفي هذا دلالة على أن أوغسطين من خلال تقسيمه للتاريخ إلى سبعة أقسام ، وهته الأخيرة تتصل ببعضها البعض ، فكل مرحلة تساعد على ظهور مرحلة أخرى أي أن التغير والتطور في المراحل مستمر إلا غاية الوصول إلى العصر السابع وهو راحة الله والتي شرحها أوغسطين في مقولته كما أشرت ، حيث أن هته المرحلة تنتقل من الزمن الذي كان محدود منذ ولادتنا إلى غاية موتنا وننتقل بذلك إلى الخلود في الحياة الآخرة ، وبهذا فهو يقصد من خلال هذا أن الراحة مقتصرة على الأشخاص الذين يقومون بأعمال صالحة ومن هنا فهم يسترحون فيه أي في راحة الله ، وبذلك فأوغسطين شبه راحة الأشخاص بأعمالهم الصالحة ، بسكان البيت الذي يكونوا مسرورين ببيتهم ، وكذا الأشخاص يفرحون براحة الله في يوم السبت لأنهم حاملين معهم أعمالهم الصالحة .

¹ بيريل سمالي ، المرجع السابق ، ص 39 .

² القديس أوغسطين ، مدينة الله ، ص ص 15 - 16 .

وانطلاقاً مما سبق فأوغسطين وازن بين طريقتين للعيش في التاريخ ، وهما تعبران عن اتجاهات الأفراد وليس أكثر من نوعين من المجتمع البشري نستطيع بالحق أن نسميهما مدينتين ، فالنوع الأول يتكون ممن يرغبون في العيش حسب الجسد واللحم ، والنوع الآخر هو الذي يرغبون في العيش حسب الروح ، إلا أنه يشير بأن الخيرات الموجودة في الدنيا ما هي إلا خيرات مؤقتة ، لا يجوز أن تمنح المقام الأسمى في الحياة ، ولا بد أن تنشأ دون اهتمام بالقيم الروحية التي هي شيء أبدي .¹

وزيادة على ذلك نستعين بمقولة أوغسطين التي يشرح فيها الفروقات الجوهرية بين المدينتين (مدينة الله ومدينة الأرض) ، فهو يقول « حبان بنيا مدينتين ، حب الذات حتى احتقار الله بني المدينة الأرضية وحب الله حتى احتقار الذات بني مدينة الله ، إحداها تفاخر بذاتها والثانية بالله تفاخر... وأن حكماء المدينة الأولى ، إذ يعيشون بحسب الجسد لا يطلبون الخير إلا في ذواتهم ، خير الجسد وخير النفس ... واتقوا المخلوق ، وعبدوه ، دون الخالق ، ... في قلب المدينة الإلهية تبقى التقوى حكمة الإنسان الوحيدة وأساس العبادة الشرعية للإله الحق ... ليكون الله كلا في الكل .² »

ومن خلال ما سبق ذكره ، واكتشاف الفروقات بين المدينتين الأرضية والسماوية ، فإن أوغسطين يقول بأن من يستحق الراحة في يوم السبت وهي راحة الله ، أولئك الأشخاص الذين يحبون الله محبة صادقة وبذلك فأوغسطين ينوه بضرورة عدم الاقتصار على محبة الذات وبذلك فهو يقول في كتابه الاعترافات «... وماذا أحب إذا حين أحب إلهي؟ من هو هذا الكائن الذي يعلو نفسي؟ أود بمساعدة نفسي ذاتها أن أرتفع إليه ، أجل سأخطئ قدرتي التي تشدني إلى جسدي وتملاً بحيويتها كل ما يحيط بي لأنها لا تستطيع أن توصلني إلى إلهي إلا لكان الحصان والبغل ، العديما الفهم يدركانه كذلك إذا أن جسديهما يعيشان بفضل تلك القوة... بي قوة لا تحي وحسب بل تجعلني أشعر بجسدي الذي هو من صنع الرب ، أنه يأمر العين ألا تسمع والأذن ألا ترى وهذه بأن تسمع وتلك بأن ترى ، وكذلك كلا من الحواس الأخرى ، وفقاً لمقامها ومهمتها وبفضلها أتم تلك الأمور وأحافظ على وحدتي الروحية...³ »

¹ محمود الشرقاوي : التفسير الديني للتاريخ ، ج 1 ، (د ط) ، مطبوعات الشعب التراث والعلوم الإسلامية لكل الشعب ، (دم)، (دت)، ص 192.

² القديس أوغسطين ، مدينة الله ، ص ص 211 – 212 .

³ القديس أوغسطين ، الاعترافات ، ص 200 .

وفي هذا يشير أوغسطين ، بأن الإنسان خلال عيشه في هذا العالم ، يجب أن لا يقتصر عيشه على حسب الجسد واللحم ، لأنه لا يحقق أي منفعة وبالتالي لا يحقق في النهاية الراحة لنفسه والفوز بجنة الخلود ، لذا على الإنسان أن يتخطى قدرته التي تدفعه للشهوات واللذائذ ، ويعيش وفقا لروح ربه متمنيا بذلك راحة الله ، فالإنسان عندما يغير نمط حياته ومعيشته يكون بذلك في انتظار اليوم الموعود الذي يحقق له السعادة ، وهته الأخيرة في حد ذاتها عبارة عن لذة أبدية يتحصل عليها الأشخاص الصالحون .

وفي الأخير يؤكد أوغسطين على فكرة هامة وهي من خلال « منذ الآن وحتى الآن ، لقد صنعنا الله من أجل نفسه ، كما أن قلبنا سيظل بعيدا عن الراحة حتى يرقد فيه ، القيمة العليا في الحياة البشرية يمنح من الرضا مالا يستطيع شيء آخر منحه ، وبذلك ينبغي أن تكون تلك المحبة هي المعنى الجوهرى لتاريخ الإنسان على هذه الأرض وما بعدها .¹

من خلال ما أشرت إليه نستطيع القول ، بأن أوغسطين قسم التاريخ إلى سبعة أقسام مرحلة بعد مرحلة إلى غاية الوصول إلى المرحلة السابعة أو العصر السابع وهو راحة الله ، صحيح هي تعبير على انتهاء الله من أعماله وبذلك يستريح ، إضافة إلى أن هته الراحة تنتظر من يسترحون في الله من خلال أعمالهم الصالحة ، وبذلك ففي التاريخ يعيشون الأشخاص وفقا لنوعين ، ففيهم من يعيش وفقا للجسد ومنهم من يعيش وفقا للروح ، وبذلك أكد أوغسطين على ضرورة التخلي على حب الجسد واللحم للفوز براحة الله وهذا ما أكدته من خلال مقولاته التي أشرت إليها سابقا ، وبذلك وحسب تعبير أوغسطين ، علينا أن نتخلى على قدرتنا التي تدفعنا لارتكاب المعاصي ، والسعي وراء الحصول على محبة الله ، فالتغير والتطور ليس مقتصر على التاريخ فقط بل على التحسين والتغير في شخصية الإنسان ، فمثل هذا التغير يقوده إلى تحقيق الراحة والسعادة لنفسية الإنسان ومن ثمة يفوز براحة الآخرة وينعم بجنة الخلود . لذا وجب علينا أن نسعى وراء كل تغيير من شأنه أن يوصلنا إلى راحة اليوم الموعود لكي نرتاح فيه أي في راحة الله ولا نرضى إلا بالشيء الذي يقودنا إلى محبته ورضاه عنا وهذا حسب ما بينته من خلال ما قال به أوغسطين في معظم مصنفاته جاهدا مثل ذلك الفوز .

¹ نقلا عن ، محمود الشرقاوي ، المرجع السابق ، ص 193 .

❖ خلاصة .

ما نصل إليه في آخر هذا الفصل ، وهو أن القديس أوغسطين أعطى أهمية كبيرة في توضيحه لمصطلح التاريخ، بحيث أن هذا الأخير كان يحمل طابع ديني أكثر من ما هو طابع تاريخي ، إذ يعرف التاريخ على أنه ذلك الذي يدرس العلاقة بين كل من المؤقت والأبدي أو بالأحرى تلك العلاقة القائمة بين المدينتين مدينة الأرض ومدينة السماء ، وبذلك عبر في كثير من المواضع في كتبه عن منطلق المدينتين ، فأوغسطين بدوره حاول أن يدرس الكتاب المقدس ، انطلاقاً من الأحداث الموجودة فيه وبذلك حاول جاهدا الدفاع عن الكتاب المقدس وإثبات جلاله وذلك من خلال تغطية كل الأخطاء وصد مختلف الانتقادات الموجهة له ، وهو من خلال منهجه في دراسة الأحداث التاريخية ، اكتشف بعض الثغرات وكذا عن أحداث غير مرتبة وكذلك عن بعض الانتقادات ، إلا أنه لم يتخلى عن الكتاب المقدس وأقام حجج من شأنها أن تحافظ على قدسيته ، وذلك ناتج من خلال فهمه لمختلف الأحداث الباطنية من خلال منهجه في التأويل الذي أدرك بأن الفهم الظاهري للكتاب سيعطي انطباعات سيئة عنه ، وذلك ما حصل معه بحيث أنه عندما اطلع أول مرة عن الكتاب سخر منه ولم تعجبه التعابير الموجودة فيه وقال بأنها ليست في مستوي بلاغة شيشرون ، فلما اكتشف الحقائق الخفية في الكتاب وذلك بفضل التأويل ، غير نظرتة فأصبح متمسكا في الكتاب المقدس أكثر ، وبذلك أقر أوغسطين بضرورة الالتزام بالكتاب والعمل بما فيه من أمور وترك المعاصي وتجنب الجسد والنفس والتوجه إلى الله وذلك بإطلاعنا الحثيث عليه ، بغية الفوز بالراحة في اليوم الآخر ونيل السعادة الأبدية الخالدة .

الفصل الثالث : محرك التاريخ في نظر القديس أوغسطين .

المبحث الأول : نظرية العناية والتخطيط الإلهي .

المبحث الثاني : مشكلة الخطيئة واللفف الإلهي .

المبحث الثالث : الجزاء والقدر وعلم الله المسبق .

المبحث الرابع : إرادة الله وإرادة الإنسان .

❖ تمهيد :

تنطلق نظرة القديس أوغسطين للتاريخ من إيمانه المسيحي باليوم الآخر وهذا الإيمان أدى به إلى الإقرار بأن الأحداث التاريخية أحداث فردية في أساسها ، والتاريخ عنده سوف يتوقف بمجيء ملكوت الله ، وفي إطار هذه النظرة المسيحية للتاريخ رفض أوغسطين التصور الدائري للتاريخ ، كما هو الحال عند اليونانيين ، فالتاريخ عنده لا يعيد نفسه وإنما يتبع اتجاهات تتقدم نحو الكمال ، لكن العصر الحديث حاول التوفيق بين التصور الدائري للتاريخ وبين الميعاد المسيحي ، فأرنولد توينبي بالذات كان مسيحياً مؤمناً بالفكرة الدورية وبالميعاد المسيحي ، فركز كل جهده في التوفيق بين هذين التصورين المتعارضين ، فكان مسيحياً مؤمناً باليوم الآخر كأوغسطين وكان عصرها ومؤمناً بالمنهج العلمي والقوانين العلمية في التاريخ . وهو بهذا قد جمع بين تصورين تعذر التوفيق بينهما عند أوغسطين ، لكن هذا الموقف لم يكن جديداً عند توينبي فقد سبقه إليه العالم الإسلامي ابن خلدون ، وبهذا فالتاريخ علماً خادماً للعقيدة وهتة بدورها مفسرة للتاريخ ، وفي هذا الفصل سنتعرف على المفاهيم اللاهوتية مثل مفهوم الخطيئة والجزاء وعلم الله المسبق ، التي من خلالها اكتسب أوغسطين طابعا لاهوتيا، وانطلاقاً من هذا نطرح بعض التساؤلات التي سنجيب عليها خلال الفصل وهي كالتالي : فيما يكمن الدور الذي تلعبه العناية الإلهية في الكون ؟ كيف عالج أوغسطين مشكلة الخطيئة الأولى ؟ هل للإرادة الإنسانية وجود أمام الإرادة الإلهية في صنع التاريخ ؟

الفصل الثالث : محرك التاريخ في نظر القديس أوغسطين .

المبحث الأول : نظرية العناية والتخطيط الإلهي .

إن فكرة العناية الإلهية كما ذكرتها سابقا هي في الأصل فكرة قديمة قدم الحضارات الشرقية ، إلا أنها اتخذت منحى جديد وذلك من خلال التصورات الدينية عند المسيحيين ، بحيث أصبح لفكرة العناية الإلهية طابع مسيحي لكنها أصبحت بعد ذلك نظرية واتضحت أكثر مع القديس أوغسطين التي كانت عنده عبارة عن « نظرية تمزج بين الرؤية الدينية والحجة العقلية ، الذي كانت فلسفته للتاريخ ذات صبغة دينية واضحة وإن حاول إسنادها على أسس عقلية استمدتها من الفلسفات اليونانية التي تأثر بها وخاصة فلسفتي سقراط وأفلاطون »¹

وهذا ما نراه في مجمل دراسات أوغسطين من خلال دراسته للعلاقة القائمة بين العقل والنقل أي بين الفلسفة والدين ، ومع إيمان أوغسطين بالمسيحية وتركه في ذلك المانوية ، وذلك من خلال أن المسيحية كان جزء كبير منها يتفق مع العقل . وفي هذا يظهر لنا تأثره باليونان ولهذا « إن كتب أفلاطون لم يقرأ أوغسطين منها إلا محاورة "مينون" ، وبذلك تأثر أكثر بالأفلاطونية المحدثة وذلك لوجود نزعة عقلية فيها ، ولهذا فكان يؤمن بالأفلاطونية المحدثة باعتبارها صورة عقلية للحقائق الإيمانية ... ومن هذا نشاهد أن تطور أوغسطين سار من النزعة الحسية المادية إلى النزعة العقلية ، أي من الفلسفة الخالصة التي لا تعرف الإيمان ، إلى الفلسفة المؤمنة التي تقوم على الإيمان ، ولهذا يمكن أن يعد ممثلا لنوع جديد من الأفلاطونية يمكن أن يسمى "الأفلاطونية الأوغسطينية". »²

من خلال هذا أود الوصول إلى نقطة هامة من شأنها أن تكشف لنا عن كيفية وصوله لتأسيس نظرية ألا وهي نظرية العناية الإلهية ، وبهذا فأوغسطين مع تحوله وانقلابه الفكري الذي أصبح ذا نزعة مسيحية دينية خالصة ، إذ أنه أصبح يؤمن بأن المسيحية هي الديانة الحقّة ، وبذلك فالأفلاطونية المحدثة وبعد الإطلاع عليها وجهت فكره العقلي أكثر ، بحيث أصبح أوغسطين يدرك بأن العقل هو في علاقة مع الإيمان -أي الدين- ، ولهذا أدرك أوغسطين ضرورة المزج بين طابع العقل وطابع الدين في نظريته في العناية الإلهية وهذا ما يعبر عنه في مقولته الشهيرة " آمن كي تتعقل " بحيث أن الإيمان بالله والتوق إليه يقودنا بصفة مباشرة بتنمية عقولنا فهو كما ذكرته سابقا يقول بأن الله فيه حب الحكمة ، وهذا بعدما كان مطالعا على كتب شيشرون ، فأوغسطين بهذا الصدد

¹ مصطفى النشار : فلسفة التاريخ ، ط 1 ، شركة الأمل للطباعة والنشر ، (دم) ، 2004 ، ص 74 .

² عبد الرحمان بدوي : فلسفة العصور الوسطى ، ط 3 ، دار القلم ، بيروت ، لبنان 1979 ، ص ص 19- 21 .

يؤكد على أن الإنسان عندما يؤمن ويوجه كل اعتقاده لله فهذا بدوره يؤدي به إلى حبه للحكمة التي هي حب للعقل، فالله فيه الحكمة ومن يؤمن به إيماناً جازماً صادقاً لا قطع فيه ، يعطيه الحكمة وينير له عقله .

إن نظرية العناية الإلهية المطبقة في التاريخ ، وبحسب تعبيرات أوغسطين هي فكرة دينية ومن آمن بفعل العناية الإلهية في تسيرها لشؤون البشر سيؤمن بالضرورة بأن الله هو مرشد عقولنا والعقل ما هو في خدمة الإيمان بالله وبعنايته في التاريخ .

من هذا المنطلق يقول أوغسطين في كتابه خواطر فيلسوف في الحياة الروحية «... وحين نصحك بالتزام الحكمة نورا للعقل ، أضاف للعقل ، رداً على سائله بأن طريق الحكمة العقل ، وطريق العقل المشورة وطريق المشورة القوة ، وطريق القوة المعرفة وطريق المعرفة تقوى الله ، وطريق تقوى الله مخافته ، تتجه الطريق صعوداً من المخافة إلى الحكمة لأن رأس الحكمة مخافة الرب ، من وادي الدموع إلى جبل السلام ، فأجعل التواضع والتقوى رأس حكمتك .¹»

في هذا دلالة إلى أن طريق الوصول إلى الحكمة ونور العقل ، يمر بالعديد من المراحل أو بالأحرى التدريجات ، فالله ومعرفتنا الصادقة وحبنا له يعطينا الحكمة وهته الأخيرة ناتجة من مدى مخافتنا منه ، فلا يظن الإنسان بأن الحكمة التي يمتلكها ليست من عند الله ، فهي من عنده لكن تضاعف أكثر بمحبته ، فالحكمة ونور العقل مصدره الأساسي والرئيسي بصفة مباشرة الله ولا وجود لمنير ومرشد آخر غيره .

والعقل بهذا الصدد عند أوغسطين لا يستقل بذاته في إدراك الحقيقة المطلقة بل لابد له في ذلك من سلطة أخرى ألا وهي سلطة الكتاب المقدس ، إلا أن العقل من الصحيح أن يمهّد لبعض حقائق الإيمان ، مع أن هذه الحقائق لا يمكن البرهنة عليها ولكن من الممكن البرهنة على أنه يمكن الاعتقاد بها وتلك مهمة العقل ، فأوغسطين يقول بضرورة الإيمان بحقائق الوحي حتى يمكن تعقلها بعد ذلك .²

العقل من هنا أيضاً له مهمة ، وهي البرهنة على مختلف الحقائق المذكورة في الكتاب المقدس ، وذلك بطبيعة الحال بعد الإيمان الحقيقي بذلك الدين المعتقد ، فالإيمان الصادق لله يعطي للعقل مجالاً في إبداعه وفي إيجاد تحاليل منطقية عقلية لمختلف المعتقدات الموجودة بداخله .

¹ القديس أوغسطين : خواطر فيلسوف في الحياة الروحية ، ص 02 .

² حسن حنفي حسنين : نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط ، أوغسطين ، أنسلم ، توما الإكويني ، ط2 ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1978 ، ص ص 13-14 .

من خلال أفكار أوغسطين بشأن نظريته في العناية الإلهية ، اكتشفت مدى مزجه لكل من العقل والدين بحيث يكون إيمانه صادق لا يشوبه أي شيء من المصالح والمنافع وهذا ما يؤدي حسب أوغسطين إلى التنوير العقلي واكتساب الحكمة ، ولهذا جعل العقل في مرتبة لاحقة عن الإيمان .

نظرا لأهمية هذه النظرية -العناية والتخطيط الإلهي- حسب مؤسسها القديس أوغسطين ، وجب علينا ذكر العمل الذي تقوم به هذه العناية ، ولهذا فأوغسطين أعطى جل اهتمامه لهذا ، وذلك ما نلمسه في العديد من مؤلفاته ، لأن نظرية العناية الإلهية ودورها في التاريخ تحدث عنها كما قلت في معظم كتبه ولذا وجب علينا إلقاء الضوء على هذه المواصفات أو الأعمال التي تقوم بها العناية الإلهية ومن ثمة التطرق في شرحها .

إن كتابه مدينة الله يحمل العديد من التعبيرات التي قدمها للعناية وعملها في الكون فهو يقول بذلك « لقد أرادت العناية الإلهية أن تفرض على مر الزمن نظاما معيناً ... وأعلنت هذه الشريعة التي تأمر بعبادة الله الواحد الحق بواسطة الملائكة ، إنه لحدث رائع يظهر فيه الله شخصيا بشكل مرئي ، إن لم يكن في جوهره غير المنظور بأعين الناس فأقله من خلال بعض علامات محسوسة تنقلها المخلوقات المؤمنة إلى خالقها ، فيها يعبر اللسان البشري في تقطع متتابع من الكلمات ، في ذاك الذي كلمته روح وعقل وأبد ، كلمة لا بداية لها ولا نهاية ، كلمة تسمع بكل نقاوتها لا بالأذن بل بالفكر ... كلمة تعطيهم بشكل لا يوصف الوصايا الواجب نقلها في النظام المحسوس والظاهر وينفذونها ... من هو ذاك الإله ؟ إنه ذاك الذي خلق السماء والأرض وكل نفس وكل روح متميز عنه ، إنه الخالق الذي صنع بيديه جميع الكائنات التي تحتاج إلى الذي صنعها لتكون وتبقى . »¹

يتبين من هذا الوصف للعناية الإلهية من قبل أوغسطين ، بحيث عبر عنها بذلك الحدث الرائع الذي يظهر فيه الله بشكل مرئي وهذا لا يعني أن الله يظهر شخصيا ولكنه يظهر من خلال عمله في هذا الكون ، فكل شيء بفضلته وكل جمال أو حسن نظام كلها يعود بفضل عمله وعنايته في التاريخ ، ونظرا لقدرة هذا العمل وعظمته يعطى انطباعات لدى البشر بحيث تصبح لديهم تصورات حول الله وكأنهم يرونه وذلك بفعل أعماله في الكون ، فالله يكلف الملائكة بما يريد أن يفعل وذلك من خلال فعل الكلمة التي تعطيهم الوصايا الواجب نقلها إلى العالم المحسوس وإلى البشرية لكي ينعموا بعمل العناية الإلهية في هذا الكون .

¹ القديس أوغسطين : مدينة الله ، ترجمة ، الخور أسقف يوحنا الحلو ، المجلد 1 ، ط2 ، دار المشرق ، بيروت ، 2006 ، ص ص 481-482 .

إضافة على هذا العمل الذي اعتبره أوغسطين عمل عظيم ، لهذا يقول «... فالخالق والمبدع الأسمى الذي ما كان بحاجة لا إلى كون ولا إلى ملائكة ليخلق العالم والملائكة ، فهو الله وحده الذي احتفظ لنفسه بسر الخلق ، إذ أن تلك القدرة الخلاقة ، غير المخلوقة ، التي استدار بيدها شكل السماء والشمس هي ذاتها التي جعلت التفاحة مستديرة كما جعلت للعين حجابها ، فضلا عن تلك الأشكال الطبيعية التي تأخذها المخلوقات عندما تولد بمعزل عن أي عمل خارجي ، بل بقوة القائل "مالئ السماء والأرض" الذي تعرف حكمته ، تبلغ من غاية إلى غاية بالقوة وتدبر كل شيء بالرفق.¹»

إن الله بهذا المنطلق وحسب أوغسطين خلق العالم بفضل قدرته فشكله بصورة محكمة منتظمة ، وعند خلقه لهذا العالم وعنايته الفائقة به ، أراد أن يكون هو وحده الخالق لكل مخلوق ولا وجود لأي فعل خارجي مساعد له ، وبهذا يكمل أوغسطين ليقول « وأية مساهمة قدم الملائكة المخلوقون منذ البدء ، للخالق في ما بقي من أعماله ؟ لست أدري ، لست أجزؤ على أن أنسب إليهم سلطان قد لا يتمتعون به ولا أرفض ما هو لهم ، على أن خلق الكائنات وتناسلها وما يجعلها في ما هي عليه ، هذا كله يعود إلى الله وحده ، ولا أخشى ألا أروق الملائكة ، لأنهم لهذا الإله وحده يعترفون بما هم عليه من كيان وله شاكرون ولا تقول فقط إن الفلاح يخلق الثمرة إذ جاء في الكتاب "ليس الغارس بشيء ولا الساقى بل الله الذي ينمي" ، ولن ننسب إلى الأم خلق ابنها بل إلى الذي يقول إلى واحد من خدامه قبل أن أصورك في البطن عرفتك " ... أيا تكن القوة التي تمارسها حركات الأمهات ورغباتها على ثمرة الحشا للتعديل في الملامح أو اللون فإن تلك الطبائع ذاتها مهما طغى على كيانها في تأثيرات متنوعة تظل عمل الله السامي دون سواه ، الذي بقدرة منه خفية ، يلج كل شيء بحضور منه لا يخامره فساد...²»

هنا إشارة إلى أن عمل العناية الإلهية لا يتدخل فيها أي مخلوق آخر ، أي لا يشارك فيها أحد حتى وإن كان الملائكة ، فالله خلق الملائكة ومعهم مهام معينة لكن بفضل إرادته وأمرهم بعمل مثل هذا الشيء ، فالله هو الذي ينمي الثمار ويصور الأرحام ، والإنسان يجب أن يخضع لهذا العمل ويسلم بإرادة الله القوية وعنايته في هذا الكون ، وهذا ما عبر عنه أوغسطين في نهاية مقولته ، بأن كل شيء يظل عمل الله السامي ، الذي بفضل قدرته الخفية يلج كل شيء ، وهو لا يعرف أي نوع من الفساد فكل ما يقوم ويأمر به يحمل معه صفات النظام والكمال .

¹ القديس أوغسطين : مدينة الله ، المجلد 2 ، ص 102 .

² المصدر نفسه ، ص ص 102 - 103 .

زيادة على تأكيد فكرة أوغسطين بخصوص عناية الله في هذا الكون ومدى فائدتها والتسليم لها فهو في ذلك يقول « الدين الصحيح يعترف بالله خالقا للكون ولجميع ما فيه من كائنات حية ، كما يعلن عنه خالقا للنفوس والأجساد ، والإنسان هذا المخلوق في المقام الأول بين سكان الأرض ، مخلوق على صورة الله... لقد خلق هذا الإنسان وحيدا ولكنه لم يبق وحده في الواقع ، ما من كائن يوازيه اجتماعيا بطبيعته... إن ولادة المرأة المستقلة من جنب الرجل تنبهنا إلى أهمية إتحاد الرجل بالمرأة ، وليست أعمال الله هذه مذهلة إلا لأنها الأولى ، والذين يأبون الاعتقاد بها لا يؤمنون بأي غريب يبطل أن يكون مذهلا إن كان نتيجة مسيرة الطبيعة العادية ، وأي شيء تافل يحدث وإن تكن علته خفية تحت إرادة العناية الإلهية السامية ؟ "هلموا فانظروا أعمال الرب الذي أتى بعجائب الأرض" ... »¹

إن الله بفضل عنايته خلق كل كبيرة وصغيرة وأهم شيء خلقه وهو أن يجعل للإنسان ما يشاركه الحياة ، أي خلق النصف الثاني منه ، ألا وهو جنس حواء ، ولهذا قال أوغسطين في مقولته أن الله بفضل عنايته لم يترك الإنسان وحيد بل أحاطه بما يعيش معه ويشاركه في حياته ، وهذا كله من صنع الخالق ، ولذا ذكر في مستهل حديثه على أن الدين الحقيقي وحده هو من يعترف بهذا العمل العظيم .

ما وصلت إليه من خلال هذا وهو أن فكرة العناية الإلهية أصبحت بفضل مجهودات أوغسطين وذلك من خلال بحثه الحثيث على اكتشاف وتقصي كل مهام الله ، لذا أصبحت كنظرية قائمة بذاتها ، ولكن مهما توصل أوغسطين أن الله بفضل عنايته وعمله في هذا الكون ، أن ينكر دور العقل ويقول بطاعة الله المطلقة ، لكن الإنسان عندما يكون ذا علاقة جيدة بربه ويؤمن بما قال به فهذا يؤدي بالضرورة إلى تنوير عقله وزيادة في وعيه وهذا عمل الله ، أي من يحب الله يتوصل إلى الحكمة ، لأن رأس الحكمة مخافة الرب ، ونظرا لأهمية هته النظرية عند القديس أوغسطين ومدى حديثه عنها في مؤلفاته ، الأمر الذي دفعني إلى إلقاء الضوء على هته الجوانب والمواصفات التي من شأنها أن تبرز لي قدرة الله على نظامه وعمله المحكم في هذا الكون ، وهذا ما أظهرته من خلال مقولات أوغسطين ، مع العلم أن أوغسطين في هذا ظهرت قدرته على التعبير الجيد ، بحيث عندما كان يتكلم عن الله ، بغض النظر عن نوع الديانة ، كأنه يتحدث معه شخصا ، وحث الناس على طاعته وتجنب المعاصي والشهوات التي تبعدنا في ذلك عن طريق الله وذلك ما حدث معه شخصا ، إلا أنه تدارك ذاته وعاد إلى الطريق الصواب .

¹ القديس أوغسطين : مدينة الله ، المجلد 2 ، ص ص 105 - 106 .

المبحث الثاني : مشكلة الخطيئة واللفظ الإلهي .

لقد تحدث أوغسطين كثيرا عن مفهوم الخطيئة في معظم كتبه ، وقبل التطرق إلى طبيعة الخطيئة والعقاب الناتج عنها ، يجب علينا أن نعرفها لدى أوغسطين ، ففي كتابه خواطر فيلسوف في الحياة الروحية يعرفها بقوله « الخطيئة عمل وقول مخالف للشريعة الأبدية والحال فإن الشريعة الأبدية هي العقل الإلهي والإرادة الإلهية ... وبالتالي فالخطيئة هي شر في الإنسان وفوضى حقيقية ، بالخطيئة يميل الإنسان عن الخالق الأسمى إلى الكائنات الدنيوية ... إذا أسأت التصرف بخير حزمها ، خطئت حتما ، استعمل خيور الدنيا استعمالا حسنا لتتمتع تمتعا تاما بالخير الأسمى ... »¹

من هذا التعريف يتبين لنا أن الخطيئة بصفة عامة مفهوم يخالف الشريعة ، وهذا الفعل ناتج من عمى النفس والعقل ، فالإنسان الذي يقوم بمثل ذلك الفعل يكون مولعا بملذات الدنيا وشهواتها ، وبهذا يصبح منقادا إلى هذا الطريق الذي يقود إلى الهلاك ، وبذلك وجب استعمال الخير استعمالا حسنا لكي يقودنا للوصول إلى الخير الأسمى وبهذا ننال رضا الله .

إن الخطيئة في نظر أوغسطين ، نابعة من الخطيئة الأصلية ومن هنا يكون أوغسطين « أول من جلا طبيعة الخطيئة التي ارتكبتها آدم وانتقلت إلى ذريته كلها إنها خطيئة وعقوبة خطيئة ، وحجته الكبرى ما ورد في رسالة بولس إلى الرومانيين حيث قال " كما أنها بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم ، وبالخطيئة الموت ، هكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس لأن جميعهم قد خطئوا " ، بالخطيئة الأولى أصبح الجنس البشري جماعة هلاك والخطيئة الأصلية تنتقل من جيل إلى جيل بشهوة الجسد ، فالأولاد يولدون بفعل شهوة الأهل ، ومن جوهر الخطيئة الأصلية شهوة الجسد ، فهي خطيئة وعقوبة ، ولكن الشهوة لا تعد خطيئة إلا بالمعنى الواسع للفظ لأنها ثمرة الخطيئة ولأنها تقود إلى الخطيئة إذا أتيح لها أن تتغلب على الإرادة ، والمعمودية تزيل الخطيئة الأصلية وجميع عواقبها ولا سيما الانفصال عن الله . »²

إن الخطيئة الأولى والأصلية التي اقترفها آدم ، أصبحت مع ذريته طوال عمرهم ، ولهذا كانت العقوبة من خطيئة آدم ألا وهي عقوبة الموت ، فالموت أصبح يلاحق كل ذريته ، بمعنى هذا حسب رأي أوغسطين بأنه لو لم يرتكب

¹ القديس أوغسطين ، خواطر فيلسوف في الحياة الروحية ، ص ص 141-142 .

² المطران كيرلس سليم بسترس وآخرون : تاريخ الفكر المسيحي عند آباء الكنيسة ، ط 1 ، منشورات المكتبة البولسية ، بيروت ، 2001 ، ص 749 .

آدم فعل الخطيئة لاستطعنا أن نقول بوجود فكرة الخلود أي خلود النفس ، لكن مع ارتكاب الخطيئة أصبح العقاب يلاحقنا أي أصبح مصير كل نفس إنسانية الموت ، ولذا فهذا الأخير عقاب عن الخطيئة لا مفر منه ، وفي نفس السياق ، أوغسطين كان يقر بأنها توجد خطايا أخرى ثانوية مثل خطيئة الجسد إضافة إلى أن كل تصرف غير لائق فهو في ثنايا الخطيئة الأصلية وهو بذلك من الخطايا المندرجة عن خطيئة آدم .

من هنا ذهب أوغسطين إلى القول بأن الشر دخل العالم بوقوع آدم في الخطيئة ، وبما أنه في الإنسان نزعتين ، كذلك قسم التاريخ كما أشرت فيما سبق إلى مدينتين ، مدينة الأرض ومدينة السماء ، تعمل الأولى على نشر الظلم ونصرته ، وتجاهد الثانية في سبيل العدالة ، ولقد كانت مدينة الله مختلطة بمدينة الشيطان حتى ظهور نبي الله إبراهيم ، ثم تميزت مدينة السماء فأصبحت في بني إسرائيل ، والمدينة الأرضية في سائر الحضارات التي بلغت ذروتها عند الحضارة الرومانية ، ولكن مع انفصالهما وتباينهما كانا يتقدمان معا ليمهدان لظهور السيد المسيح ، مهد بنو إسرائيل له روحيا ، ومهدت الحضارات القديمة له سياسيا وفقا لتدبير من العناية الإلهية ، وانتهى التمايز بظهور السيد المسيح ، ومن ثمة يجب أن تتم الوحدة بين الجانب الروحي ممثلا في الكنيسة ، والجانب السياسي ممثلا في الدولة.¹

وهذا يعني أن فكرة الشر دخلت إلى العالم عندما اقترف آدم الخطيئة أصبح الإنسان ذا نزعتين ، نزعة الخير ، ونزعة الشر الذي لم يكن الإنسان سببا في ظهورها وإنما امتلك الشر من خطيئة آدم ، فبعدما كانت وحدة الإنسانية غير مدنسة بالشر ، فأصبح الإنسان يمتلك ازدواجية إنسانية ، والتي تقوم على الخير والشر .

إن القديس أوغسطين عندما قام بشرح رسالة يوحنا الأولى ، اكتشف بذلك بعض الأمور والحقائق المتعلقة بفكرة الخطيئة ، وبهذا قام أوغسطين بجمع هته الشروحات التي قام بها في بلورتها في كتاب سماه "شرح رسالة يوحنا الأولى" ، ومن خلال ما تعرضه ندرك موقف يوحنا من الخطيئة ، لذا يقول أوغسطين « لا يسهل أن نوفق بين ما يقول يوحنا الآن "من كان مولود من الله لا يخطأ" وبين قول له سابق "إن قلنا أن ليس فينا خطيئة فإنما نضل أنفسنا وليس الحق فينا" ، وماذا يفعل من وقع بين هذين النصين من الرسالة ؟ ... لهذا يجد الإنسان ذاته في حيرة ... فإن أعلن أنه بلا خطيئة أتى أمرا خطيرا وليس خطيرا وحسب بل ومخالفا للحقيقة وإن قلنا أن ليس فينا

¹ أحمد محمود صبحي : في فلسفة التاريخ ، (د ط) ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية ، 1975 ، ص 168 .

خطيئة فإنما نضل أنفسنا وليس الحق فينا ، ليتك حر من الخطيئة لتقدر أن تنطق ذاك الكلام... أو لم يولد يوحنا من الله ؟ ¹

إن أوغسطين من هذا يحاول أن يبين لنا موقف يوحنا من الخطيئة ، إن يوحنا في حديثه عن الخطيئة لم يقل بأنها كانت توجد خطيئة في الماضي ثم لم تعد فينا خطيئة ، فيوحنا كان يقر بأنه إذا قلنا بأن الخطيئة ليست موجودة فينا نضل أنفسنا وليس الحق فينا ، بمعنى أن يوحنا كان يقول ويؤكد على أن الخطيئة موجودة بداخل كل نفس ولا يمكن أن ننكر هته الحقيقة ، لكن في موضع كلامه الأول الذي يقول أن من كان مولودا من الله لا يخطأ ، فهنا يتساءل أوغسطين ، أو لم يولد يوحنا من الله ؟ إذا كان يوحنا مولود من الله فهذا يعني أن يوحنا لا يخطأ وإن صح هذا القول فيوحنا يناقض نفسه ، لأنه أنكر الحقيقة وضل عن نفسه .

للخروج من هذا التناقض وللتوضيح أكثر ما يريد أن يقوله يوحنا بخصوص مسألة الخطيئة ، فأوغسطين يكمل قوله « ... ومن يعمل الخطيئة فهو من إبليس لأن إبليس يخطأ منذ البدء ، أن الشيطان ما خلف ولا ولد إنما هناك من ينهجون نهجه وكأنهم منه مولودون ، لقد ظهر ابن الله لينقض أعمال الشيطان وظهر من لم يعرف الخطيئة لينقض الخطيئة ... لقد قلت لكم أن الكلمات "من كان مولودا من الله لا يخطأ" ، تدل على خطيئة معينة وإلا تناقضت مع هذه الكلمات الأخرى "إن قلنا أن ليس فينا خطيئة نضل أنفسنا وليس الحق فينا" ، وعلى هذا النحو تحل المشكلة هناك خطيئة لا يقتترفها من كان من الله مولودا وإذا تحاشاها قضي على باقي الخطايا أما إذا اقتترفها فتتشط الخطايا الأخرى ، وما هي هذه الخطيئة ؟ التعدي على وصية المسيح ، الوصية الجديدة ، وما هي تلك الوصية الجديدة ؟ "وصية جديدة أعطيتكم أن تحبوا بعضكم بعض" ... وماذا نقول عن باقي الخطايا ... ولنصغ إلى قول آخر من الكتاب المقدس "المحبة تغطي خطايا كثيرة" ، لهذا نوصيكم بالمحبة ... إنما على من يقبل كأس الخلاص ويدعو اسم الرب أن يمتلئ محبة وألا يبغض أخاه وحسب ، وأن يكون مستعدا للموت في سبيل أخيه ، وذاك ما حققه السيد المسيح. ²

نفهم من هذا أن يوحنا لا يناقض أفكاره ، بل كان يقول بأن من كان مولود من الله لا يخطأ ، وهذا يعني ليس المولود من الله منذ البدء ، فيوحنا لا يقصد هذا ، لأنه يقول من كان مولود جديدا من الله لا يخطأ ، فهذا المولود الجديد بفضل السيد المسيح ، لأن بقدوم السيد المسيح خلص الناس من الخطيئة الأولى أي خطيئة آدم ، وبهذا

¹ القديس أوغسطين : شرح رسالة القديس يوحنا الأولى ، ترجمة، الخوري يوحنا الحلو ، ط4 ، دار المشرق ، بيروت ، 2001 ، ص ص 74 - 75 .

² المصدر نفسه ، ص ص 76 - 78 .

أصبح المسيحيين وكأنهم مولودون من جديد ، أما بخصوص الخطيئة التي قال بها يوحنا وهي عن عدم التعدي على وصية السيد المسيح ، ويجب التحلي بالمحبة ، لأن من تعدى على وصية المسيح يصبح بذلك فاتحا لمجال الخطايا الأخرى التي نحن في غنا عنها ، لأن من يقوم بفعل التعدي على وصية المسيح لا يصبح مولود من الله الذي غفر له الخطيئة الأصلية التي كانت تلاحقه ، وبهذا يصبح مولود من الشيطان ، أما عن حديثه عندما قال ، إن قلنا أن ليس فينا خطيئة نضل أنفسنا وليس الحق فينا ، إن الخطيئة موجودة بداخل كل نفس ألا وهي خطيئة آدم ، بمعنى لا يمكن إنكار وجود الخطيئة فينا ، وبهذا يجب شكر السيد المسيح ، الذي بفضل قدومه في صورة الله خلص البشرية من الخطيئة التي كانت تلاحقهم ، لذا يجب عدم اقتراف خطيئة أخرى أكبر وهي الاعتداء على وصية المسيح ، ففي سياق حديث يوحنا ، يذكر فكرة هامة جدا وهي من يريد الخلاص يحترم وينفذ وصية المسيح .

بعدما تطرقنا إلى شرح مفهوم وطبيعة الخطيئة سواء الخطيئة الأصلية أو الخطيئة التي شرحها لنا القديس يوحنا ، بقي علينا ذكر بعض المواصفات التي قال بها أوغسطين ، وهته المواصفات تكون في الأشخاص الذين تعودوا فعل الخطيئة ، وبهذا يرجع ليؤكد في كتابه خواطر فيلسوف ، مؤكدا على أن من تعود ارتكاب الخطيئة استخف خطرها، وفي هذا يقول « متى صارت الخطيئة عادة بدت خفيفة غير مؤذية ، وإن تكن جسيمة وثقيلة ، حتى الإنسان لم يعود ينفىها بل يعلنها ويتباهى بها ... »¹

إن الإنسان كل ما تعود ارتكاب الخطيئة يصبح مستخف لمدى خطرها ، وهذا أمر حقيقي فمثلا من تعود على فعل الزنا أو شرب المخدرات أو ما شابه ذلك يصبح متباهيا بهذه الأفعال ويصبح غير مبالي ويظهر بها .

يؤكد أوغسطين أيضا على فكرة هامة وهي مهما تكن طبيعة ونوع الخطيئة المقترفة فهذا لا يؤثر على عمل الله ولذا يقول « الخطأة سواء أكانوا ملائكة أم بشرا ، عاجزون عن تشويش نظام أعمال الرب العظيمة ، المدبرة لكل مراده بها . »²

فالخطيئة إنطاقا من هذا فهي تعود بالضرر على فاعلها ولا يعني أن الذي يقوم بمثل ذلك الفعل أنه يعتقد باستطاعته تخريب نظام وعمل الله ، لأن عمل الله في الكون مستمر والإنسان مهما قام بفعل الخطيئة ، حتما سيندم على فعلها فيما بعد ، ولهذا مهما كان نوع الخطيئة لا تشوش ولا تغير أي شيء من عمل الله .

¹ القديس أوغسطين ، خواطر فيلسوف في الحياة الروحية ، ص 154 .

² القديس أوغسطين ، مدينة الله ، المجلد 2 ، ص 210 .

بالرغم من هذا كله يرجع أوغسطين ليؤكد بأن الله يصبر على هؤلاء الخطاة ، فمهما قام الشخص بفعل خطيئة ما ، سيصبر عليها الله ، ومن هنا يظهر مدى اللطف* الإلهي بحيث يقول «... من افتدك برحمته يدينك بعدله وإن ترفق بك ، أيها الخاطئ المتماذي في غيه فلا تعتبر موقفه هذا ، إهمالا بل صبر منه عليك ، لم يفقد قدرته ، إنما أبقاك لزمن توبة ، خف عدله إن رغبت في رحمته ، يسامح الآن إنما لن يصمت ... ويصبر عليك حتى تتوب أيا كان الوقت الذي فيه تتوب ، فإنه يتناسى الماضي ويعدك بالمستقبل ... إن كنت شريرا بالأمس ، فكن اليوم صالحا ، وإن قضيت يومك في الإثم ، فغير ما أنت فيه غدا على الأقل ...»¹

من هذا نكتشف مدى قدرة الله على الصبر والتحمل لكل معاصي وخطايا الإنسان ، فأوغسطين بدوره يقر بضرورة التغيير من أنفسنا ، وهذا ما نلمسه في أوغسطين شخصا ، فمن المتعارف عليه أن أوغسطين قد مر بمرحلة المراهقة والشباب التي كان يعتبرها مرحلة تغلبت فيه شهوته ونفسه وانقاد إلى الطريق الفاسد مع صحبة رفاق السوء ، إلا أنه عندما اطلع على الديانة المسيحية ، وانكشف مدى ما كان يفقد من آثار إيجابية وتعاليم وأفكار ، لذا غير من نفسه واتجه في طريق الله ، راجيا في ذلك نيل مغفرة الله ورضاه عليه .

ففي كتابه الاعترافات توجد العديد من التعبيرات التي تؤكد مدى اختلاف أوغسطين وتطوره من مرحلة إلى مرحلة ومن هذا الصدد يقول « لقد مات مني عهد الشباب الأثيم الفاسد ودخلت طور الرجولة ، وكلما تقدمت في السن ازدددت خجلا من بطلان أعمالي ... واجهت نفسي للتفكير فيك وأن الإنسان -وأي إنسان- ، وأنت العظيم ، الإله الواحد الحق ، واعتقدت اعتقادا ثابتا بأنك غير قابل للفساد ...»²

إن الخطيئة من خلال ما سبق ذكره هي عمى النفس والعقل وهي فعل مخالف للشرعية إضافة إلى كل التعبيرات التي تقود الأمة إلى الهلاك فهي تعبيرات عن الخطيئة ، وهذا ما اعترف به أوغسطين ، عندما كان منقادا مع جسده ونفسه وراء الشهوات والملذات ، وعندما أدرك مدى خطأه وذلك بفضل نصائح أمه مونيكا وكذا تأثره بالأفلاطونية المحدثة ، انقلب فكره رأسا على عقب وأصبح يفكر في كيفية إرضاء ربه وطريقة الوصول إليه ولهذا كان محافظا على الكتاب المقدس ، لذا كان يحث الناس على إتباع طريق الله لأنه الأصح ويقود إلى السعادة .

* اللطف: اللطيف صفة من صفات الله واسم من أسمائه ، فاللطيف هو الذي اجتمع له الرفق في الفعل والعلم بدقائق المصالح وإيصالها إلى من قدرها له من خلقه (راجع ، ابن منظور : لسان العرب ، المجلد 9 ، (د ط) ، دار صادر ، بيروت ، (د ت) ، ص 316 .)

¹ القديس أوغسطين ، خواطر فيلسوف في الحياة الروحية ، ص 164 .

² القديس أوغسطين ، الإعترافات ، ص 121 .

المبحث الثالث : الجزء والقدر وعلم الله المسبق .

لو نظرنا إلى هذا العنوان ، لوجدنا أنه ينقسم إلى ثلاث مفاهيم أساسية ، وهي مفهوم الجزء ومفهوم القدر وكذا المفهوم الرئيسي وهو علم الله المسبق ، ولذكر العلاقة بينهما يجب علينا أن نبدأ بشرح كل مفهوم على حدة.

فمفهوم الجزء* عند أوغسطين ، فصله فصلا تاما عن مفهوم اللطف الإلهي ، وهذا ما آثار غضب بعض المتبرسين الكاثوليك بالقول بنوع من الظلم الإلهي لأولئك الذين لم يمنحهم الله لطفهم ، وبهذا يكون اللطف وحده هو من يميز بالفعل عند أوغسطين بين المفتدين من الضالين ، وبهذا الفصل القاسي قد قضى أوغسطين على كل أمل للإنسان يجعله يشارك في صنع مصيره وبالتالي في صنع التاريخ ، إن اللطف هو المحرك الوحيد للتاريخ وكل ما يملكه الإنسان هو قبوله لقدره فهو إما من المصطفين الذين خصهم الله بلطفه ، وإما من المغضوب عليهم أي المحرومين من هذا اللطف .¹

إن الجزء وكما هو معروف فهو أخذ إما العقاب أو الثواب ، لكن أوغسطين بفصله بين الجزء واللطف ، قد قيد مفهوم الجزء على أنه مقتصر فقط على الأشخاص الذين يعاقبهم من طرفه ، بمعنى أن الجزء لا يمثل عند أوغسطين سوى العقاب ، في حين أن الأشخاص الذين سينالوا ثوابهم هم من يمنحهم لطفه ، وهذا الفصل قد آثار غضب الكاثوليكين لأنهم قالوا بأن هذا الفصل فيه نوع من الظلم الإلهي .

في كتاب مدينة الله يعبر أوغسطين عن هذا في عنوان سماه "عدالة الجزء" ، إذ يقول « وعليه فالإنسان قد حقر الله ووصيته ، احتقر الله خالقه الذي صنعه في صورته ، وسلطه على باقي الحيوانات ... وبدلا من أن يرهقه بالوصايا الكثيرة الطويلة والمضنية ، أوصاه بالطاعة لوصية واحدة وخيرة وسهلة ، لينبئه إلى أنه هو السيد ... ومن ثم فقد تبع ذلك الأمر حكم عدل وأصبح الإنسان المعروف بأمانته ، الروحاني بجسده ، حيوانيا في روحه هو الإنسان الذي بسبب كبريائه ارتضى بذاته وتركه الله بعدل منه لذاته ... »²

في هذا إشارة إلى مدى اهتمام الله بعباده ، لأنه لم يقوم بتكليفهم بأشياء تفوق قدرتهم ، إذ بالعكس أوصاهم فقط بوصية واحدة وهي إتباع كتابه واحترام وصية المسيح .

* الجزء: جزى الشيء جزاء كفى وأغنى ويقال جزى مجزى فلان ومجزاته قام مقامه وفلانا بكذا وعليه كافأه ، والجزء أخذ الثواب أم العقاب (راجع ، شوقي ضيف: المعجم الوسيط ، ط4 ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة ، 2004 ، ص ص 121- 122 .)

¹ زينب محمود الخضيرى ، مرجع سابق ، ص ص 86- 87 .

² القديس أوغسطين ، مدينة الله ، المجلد 2 ، ص 189 .

من خلال ما سبق وأن ذكرته اتضحت لي الصورة أكثر بأن الله يوجه لطفه لمن يريد ، فالإنسان الذي يخطأ ويعصى يتركه الله على هواه ويصبر إلى حين وعلى أمل رجوعه إلى الطريق الصواب ، وإن لم يرجعوا سيخضعون للجزاء والعقوبة . وللوضوح أكثر علينا ذكر مفهوم القدر وربطه بالمفهوم الأخير (علم الله المسبق) .

إن أوغسطين اعتبر القدر بمثابة إعداد وتمهيد للطف الإلهي ، وبهذا فالله حر تماماً في توزيعه للنعم على عباده ولا دخل لأعمالنا بشأن قدرة الله ، فالمعروف بأن أوغسطين مذهبه متمركز حول الله ومن هنا نستطيع فهم حقيقة القدر ، فالله يفعل ما يشاء ولمن يشاء في الوقت الذي يشاء ، وعلى هذا المنوال ربط أوغسطين بين القدر وعلم الله المسبق بحيث جعل هذا العلم ليس علماً بما يستحقه البشر من جزاء ، بقدر ما هو علم بالنعم التي قرر الله أن يمنحها للبشر من أجل تحقيق خلاصهم¹.

تجدر الإشارة هنا إلا أن « الجنس البشري وإن أصبح بخطيئة آدم جماعة هالكة قد قدر الله بصلاحه ورحمته، لقوم منه أن ينعموا بالسعادة الأبدية ، وعدد هؤلاء القوم محدود فهم بالغون السماء في غير شك ، وبمعزل عن الاستحقاقات التي سينالوها هبات مجانية من الله ، إذ أن علم الله غير معرض للخطأ وإرادته التي تمنح النعمة لا مرد لها وأما سائر البشر فهم أبناء الهلاك لأنهم لم يعطوا النعمة الخلاصية وليس في الأمر ظلم بل عدالة لأن الظلم بعيداً عن طبيعة الله . »²

من خلال ما سبق ذكره بخصوص كل من الجزاء والقدر وعلم الله المسبق ، تبين لنا أن الله بفضل علمه المسبق بظواهر الأمور فهو من اختصاص الله وحده ، فهو قد حدد الأشخاص الذي يمنحهم الخلاص وكذا يمنحهم السعادة ، فالله بعلمه المسبق يعلم الأعمال الخيرة التي سيقومون بها الأشخاص ، وبهذا بالرغم من الخطيئة الأصلية التي قادت كل البشرية إلى الهلاك ، إلا أن الله بفضل فعل القدر قد منح لقوم منه أن ينعموا بالسعادة وقضاءه الأبدي الذي يوصلهم إلا غاية الخلاص ، ولهذا أوغسطين كما ذكرت في بداية هذا المبحث قام بالفصل بين الجزاء واللفظ ، لأن الأشخاص الذين يرتكبوا الخطيئة ولم يتداركوا مدى وقوعهم فيها ، فإن الله حتماً سيتركهم بعدل منه ، ولذا فعدالة الجزاء لم تقبل بمثل هذا الشيء ، فالأشخاص الذين ذهبوا مع أهوائهم وانقادوا معها ، فإن اللطف لا يشملهم ويعتبرون من جماعة الهلاك ، وهذا كله ليس ظلم وإنما هو غاية العدالة ، فكل شخص يستحق شيء يمنحه إياه الله ، وبهذا فالله حر في من يعطيهم لطفه وفي من يخضعون لجزائه وعقابه .

¹ زينب محمود الخضيري ، المرجع السابق ، ص 88 .

² المطمران كيرلس سليم بسترز وآخرون ، المرجع السابق ، ص 752 .

المبحث الرابع : إرادة الله وإرادة الإنسان .

من الواضح أن موضوع إرادة الله وإرادة الإنسان ، شغل تفكير أوغسطين طويلا وهذا ما نلمسه في العديد من كتبه بحثا عن علاقة كل منهما في صنع التاريخ ، ولهذا سأحاول جاهدا أن أبين مدى علاقة كل من الله والإنسان بالتاريخ ، ولذا سأنتقل من فكرة إلا وأني قد تحدثت فيها لكن لضرورة الفهم يقتضي الذكر، وهي كالتالي : « إذا كان الله يعلم مسبقا بأن آدم سوف يقترب الخطيئة الأصلية ، فإنه من الضروري أن يقترب آدم الخطيئة الأصلية، وإذا كان من الضروري أن يقترب آدم الخطيئة الأصلية فإنه لن يقتربها بمحض إرادته الحرة ، وإذا لم يقترب آدم الخطيئة الأصلية بمحض إرادته الحرة فإنه لا يستحق اللوم على اقترافها ، ولكن آدم يستحق اللوم على اقترافه الخطيئة الأصلية . »¹

في هذا دلالة إلى وجود مقارنة بين علم الله المسبق وإرادة الحرة لدى الإنسان ، فإذا كان آدم قد اقترب الخطيئة بعلم من الله المسبق ، فلا يستحق اللوم ، لأنها ليست ناتجة من إرادة آدم الحرة ، وهذا يقودنا إلى طرح تساؤل ، عن ما إذا كانت هناك إرادة حرة للإنسان ؟

إن الجدير بالذكر هنا وهو أن مشكلة علم الله المسبق وحرية الإرادة ، ليست من ابتكارات أوغسطين ، وإنما أخذها من عند شيشرون ، وبالرغم من أن أوغسطين من أشد المعجبين بفلسفة شيشرون ، إلا أن موقفه يختلف عن موقف شيشرون تمام الاختلاف .²

إن أوغسطين في كتابه مدينة الله ، يبين لنا موقف شيشرون من مشكلة علم الله المسبق وحرية الإرادة ، وذلك لإثارته لهته المشكلة وحبه للكشف عنها فهو يقول « ... ينشط شيشرون إلى العمل على دحض آراء هؤلاء الفلاسفة ... ولهذا نراه ينكر معرفة المستقبل في الله وفي الإنسان ولا مجال البتة للتنبؤ وعلى هذا النحو ، إذ ينكر على الله هذا العلم وكل نبوءة ... حين ينكر كل معرفة للمستقبل لأن الاعتراف بالله وعدم الإقرار له بمعرفة المستقبل ، جنون فاضح ... »³

من خلال ما جاء في حديث أوغسطين ، يتبين لنا الموقفين معا ، موقف شيشرون وموقف أوغسطين، فالمشكلة أساسا وهي إن كان الله لديه علم مسبق واستطاعته على التنبؤ ، فأوضح أوغسطين لنا بأنه بالرغم من

¹ جاريت ماثيوز : أوغسطين ، ترجمة ، أيم فؤاد زهري ، ط 1 ، آفاق للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2013 . ص 155 .

² المرجع نفسه ، ص 156 .

³ القديس أوغسطين ، مدينة الله ، المجلد 1 ، ص 231 .

فلسفة شيشرون القوية وتأثره بأفكاره ، إلا أن شيشرون لا يعترف بوجود علم مسبق لله ، بحيث اعتبر كل من يقول بهذا فهو مجنون ، إلا أن أوغسطين هو الذي اعتبر بأن الحديث والقول بأن الله لا يمتلك القدرة على التنبؤ بعلم مسبق كلام فاضح وجنون ، إلا أننا لا نستطيع أن نقول بأن الله لا يعلم مسبقا ما نحن عليه وما سنكون عليه ، إذن شيشرون لا يعترف بوجود علم مسبق لله ، بينما يقول بالإرادة الحرة للإنسان ، في حين أوغسطين يعترف بعلم الله المسبق ، أما بخصوص حرية الإرادة الإنسانية بقي أمر غامض لدى أوغسطين .

إذن أوغسطين يعترف بوجود علم مسبق لله وقدرته على التنبؤ ، لكن بخصوص مسألة الإرادة الحرة سأحاول الوصول إلى نتيجة من شأنها أن تكشف لنا رأي أوغسطين ، وقبل الخوض في هذا علينا ذكر نقطة مهمة حاربها أوغسطين ، ألا وهي "بدعة بيلاج" .

إن هته البدعة تنطلق أساسا من هذا ، « كان يوجد راهب اسمه بيلاج كان يذيع وينشئ شيعة تعلم أن للإنسان -دائما ووحده ومن تلقاء نفسه- أن يريد الخير وأن يفعله ، دون احتجاج لنعمة إلهية فإن وجدت النعمة ظلت خارج الإرادة عديمة التأثير فيها ، وعلى ذلك فلا اختيار من جانب الله يقرر مصير كل مخلوق ، بل كل ما هنالك سبق علم الله بالمستقبل .¹ » إن بيلاج يؤكد على أن الإنسان له إرادة وهي خارجة عن أي سلطة إلهية ، فالإنسان عندما يريد فعل الخير فيفعله بمحض إرادته ، وهذا ما حاربه أوغسطين بحيث قام بمحاربة بدعة بيلاج وعارضها معارضة شديدة ومن هنا « فأوغسطين يؤكد على أن كل إرادة فهي خاضعة لله حتما ، فالنعمة الإلهية ضرورية لكل فعل خير وبنوع خاص في المجال الفائق للطبيعة ، أي للإيمان بالحقائق الموحاة ، وإعطاء الأفعال خيريتها فائقة الطبيعة ، الأفعال أفعال الإنسان ولكنها أيضا أفعال الله ، فليست النعمة ملاشية للحرية ، وإنما هي معونة لفعل الخير ، وليس سبق علم الله بالأفعال حجة ضد الحرية .² »

إن أوغسطين أكد على ضرورة النعمة الإلهية وأنها بمثابة المعين للإنسان في أن يفعل الخير ، فعلم الله المسبق ليس ضد الحرية ، لكن بالرغم من معرفتنا لمعارضة أوغسطين لكل من يقولون بوجود إرادة حرة لا دخل لها بإرادة الله ، إلا أننا لازلنا لم نكتشف رأي أوغسطين بوجود إرادة حرة للإنسان أم لا ؟ فالشيء المهم وهو أن أوغسطين في حد ذاته لم يعطينا إجابة صريحة ودقيقة ، لأنه كان يستعمل أسلوب المراوغة والتهرب من الجواب، وهذا لا يمنع بوجود بعض الملامح أو بالأحرى بعض الإشارات من شأنها أن تبين لنا موقفه .

¹ يوسف كرم ، مرجع سابق ، ص 40 .

² المرجع نفسه ، ص 40 - 41 .

في كتابه مدينة الله المجلد الثالث يوجد ملمح من خلاله نكتشف بعض الأمور فهو يقول « ذاك ما سنه النظام الطبيعي ، وبأي شرط خلق الله الإنسان فيقول "النصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا وليتسلط على سمك البحر وطيير السماء والبهائم وجميع الأرض وكل الدبابات الدابة على الأرض" ولا يريد من الكائن العاقل المخلوق على صورته أن يسيطر إلا على الكائنات غير العاقلة ولا يريد من الإنسان أن يسيطر على الإنسان بل الإنسان يسيطر على الحيوان ... »¹

في هذا إشارة إلا أن الله يريد من الإنسان أن يسيطر على الكائنات الغير عاقلة أي الحيوان ، ولهذا إرادة الإنسان تقتصر على سيطرته على كل من سمك البحر وطيير السماء وما شابه ذلك ، وهذا ما يدفعني إلى طرح تساؤل ، هل حرية الإرادة التي يتمتع بها الإنسان لها دخل في صنع التاريخ ؟

إن موقف أوغسطين حير بعض الباحثين ، فكانوا يختلفوا في فهم نصوصه ولكن في قراءتها وبذلك وجب علينا ذكر « مقولة لأوغسطين اختلفت القراءة حولها وهي كالتالي : Necutique Deus injuste noluit : salvos fieri , cum possent salvi esse , si vellet.

فترجمتها بالعربية تعني "وبالقطع لم يكن الله ظالما عندما لم يرد خلاص أولئك الذين كان خلاصهم ممكنا لو أراد"، والمشكلة في هذا النص وهو كلمة "vellet" ، أي "أراد" ، فلو أضيف حرف واحد وهو حرف ال n ، للكلمة "vellet" فأصبحت "vellent" ، أي من لو "أراد" تصبح لو "أرادوا" وفي هذا فرق كبير في الحالتين فلو قلنا لو أراد بمعنى الله هو الذي يريد وإرادته بذلك مطلقة ، أما في الحالة الثانية لو أرادوا وهنا وقعت المشكلة لأننا لو قلنا لو أرادوا أصبحنا نقر بإرادة فاعلة وهي إرادة البشر . »²

يؤكد أوغسطين على حقيقة أخرى بشأن إرادة الإنسان وهي « أن آدم لم يفقد حرية الاختيار أو حرية الإرادة ... بل فقد الحرية الخيرة الخالية من أي هوى أي تلك التي فطر عليها ، وإن بقيت لآدم ولبنيه حرية الاختيار التي قد تفسدها الأهواء . »³

في هذا الموضع يتبين لنا أن الإنسان له طبيعة خيرة مفطور عليها ، وعندما قام آدم بارتكاب الخطيئة ضيع تلك الطبيعة الخيرة ، ومن خلال هذا لا نستطيع أن نقول أن الإنسان يمكنه الوصول إلى الحرية التامة أي الوصول إلى

¹ القديس أوغسطين : مدينة الله ، ترجمة ، الخور أسقف يوحنا الحلو ، المجلد 3 ، ط2 ، دار المشرق ، بيروت ، 2007 ، ص 141 .

² نقلا عن زينب محمود الخضيري ، المرجع السابق ص 94 .

³ المرجع نفسه ، ص 91 .

الإرادة الحرة ، وذلك لأنها قد ضعف قدرها بارتكاب آدم للخطيئة ، فالوصول إلى الإرادة الحرة كان عند آدم قبل ارتكابه للخطيئة وعندما اقترفها فقد الإرادة الحرة الخيرة التي كان مفطور عليها ، ومع هذا فالإنسان لديه حرية لكن ليست بالقدر الذي كانت عليه .

وزيادة على تأكيد فكرة أن الطبيعة الإنسانية خيرة يقول أوغسطين « الطبايع موجودة بشكلها وأسلوبها وسلامها ولهذا فهي جيدة ، ولكي تكون حيث يجب ، وفقا للنظام الطبيعي ، تحتفظ بكيانها ، والتي لم تعط حتى الوجود الدائم تتغير إلى الأفضل أو الأسوأ بحسب ما يحركها به الآخرون أو يستعملونها ، إستادا إلى الشريعة التي سنّها الخالق ، تتوق بذاتها إلى الغاية التي حددتها لها العناية الإلهية ... »¹ ، بمعنى أن الإنسان ذا إرادة خيرة ، لكن الشر دخل النفوس وذلك باقتراف آدم لفعل الخطيئة ، إذ حرم من الجنة ، وأصبحت ذريته في العيش وفقا لذلك العقاب الذي امتلكه آدم .

إن الإنسان من هذا القبيل يستطيع أن يعيش بتلك النزعة الخيرة التي ملكها وكذا بمقدوره ترك النزعة الأخرى أي نزعة الشر والعيش وفقا للخير الذي منحه إياه الله ومن هذا يضيف أوغسطين قائلا «... وعليه فالله بشهادة الكتاب المقدس، خلق الإنسان مستقيما ، ذا إرادة صالحة ، ولما كانت له الاستقامة لولا الإرادة الصالحة التي صنعها الله وقبلها الإنسان منه تعالى مع الحياة... »²

من خلال هذا أيضا اتضح لنا أن الطبيعة التي خلق بها الإنسان خيرة ، بحيث كان مستقيما ولما اختلطت هته الطبيعة الخيرة مع الخطيئة الأصلية أصبحت حرية الإنسان ليست بالقدر التي كانت عليه ، وفي هذا الصدد نستطيع الوصول إلى نتيجة نلخصها في هذا القول «...والإرادة البشرية لا تستطيع أن تأتي بشيء من الخير بدون عون الله ،وهو يعزو إلى الإرادة الإلهية وجود الخير والشر والمؤمنين وغير المؤمنين والناجحين والهالكين. »³

والإرادة البشرية من هذا المنطلق لا تستطيع القيام بشيء إلا في إطار العون الإلهي ، لأن كل المؤمنين وغير المؤمنين والهالكين وغيرهم فهم تحت الإرادة الإلهية .

من خلال عرضي لمختلف أفكار أوغسطين حول موضوع إرادة الله وإرادة الإنسان ، ومن هذا إن طبيعة الإنسان المفطور عليها هي طبيعة خيرة في الأساس ، أي مثلما يكون آدم قبل اقترافه الخطيئة ، وبارتكابه للخطيئة

¹ القديس أوغسطين ، مدينة الله ، المجلد 2 ، ص ص 65 - 66 .

² المصدر نفسه ، ص 181 .

³ المطمران كيرلس سليم بسترس وآخرون ، المرجع السابق ، ص 752 .

أصبح بذلك فاقدا لتلك الطبيعة الخيرة ، وهذا لا يعني أنه فقد كامل حريته وإرادته ، لأن الحرية التي كان يمتلكها ضعف قدرها ، وبهذا فالإنسان بحسب أوغسطين ، لديه إرادة حرة ومطلقة لكن في أفعاله وبالتالي فالإنسان مسئول عن أفعاله وتكون في هذا إرادته صارمة لا تقبل شريكا طبعيا في اختيار أفعاله والتصرف فيها وهذا ما ذكرته في إحدى مقولات أوغسطين بخصوص أن الإنسان لديه سلطة على الحيوانات والسمك وطيير السماء ، لكن في تدخله في صنع التاريخ هنا لا وجود لإرادة إنسانية في هذا المجال والإرادة الإلهية المطلقة وحدها هي المسيطرة على التاريخ ، ومن هذا نجد أوغسطين قد خالف كل من شيشرون وعارض بدعة بيلاج ، مؤكدا بذلك على أن إرادة الإنسان تكتمل في أفعاله ولا دخل لها في صنع التاريخ .

إن أوغسطين ينوه إلا فكرة مفادها وهي أن مهما الإنسان لديه الحرية المطلقة في أفعاله ، فهذا لا يعني أن الله كما قال بيلاج لا حاجة له ، لكن أفعال الإنسان هي نفسها أفعال الله كما قال أوغسطين والنعمة الإلهية هي معونة للإنسان على فعل الخير ، فالإنسان في الأمور التاريخية لا دخل له .

من هذا كله نبلور ما جاء سابقا من خلال مقولة أوغسطين بحيث يقول «... لو فاتتك مساعدة الله لما استطعت حقا أن تقوم بأي عمل صالح ، إنك لتعمل أحيانا ، بمعزل عند حبس إرادتك الحرة ولكنك تعمل سوءا لأن إرادتك الحرة كما سميت لا يسعها إلا أن تعمل السوء ... أما المعلم الحقيقي الذي لا يتملق ولا يخدع أحدا فلا يقول لك ومع أنه يسعك أن تعمل شيئا بدوني فمن الأسهل عليك أن تعمل معي ، إنه لا يقول لك بدوني تحمل بعض الثمر ومعني تحمل أكثر ، أجل إنه لا يقول لك ذلك ، بل اسمع ما يقول "بدوني لا تستطيعون أن تعملوا شيئا".¹»

في هذا اتضحت الرؤية أكثر بأن الإنسان لديه إرادة حرة لكن في أفعاله التي يقوم بها ، ومع أن أوغسطين يعترف بوجود إرادة حرة للإنسان ، إلا أنه يقول بأنها إرادة سيئة لذا وجب التوجه إلى الإرادة الصحيحة التي نصل بإتباعها إلى الخير والسعادة ، ولذا وجب الإيمان بإرادته لكي يصلنا لطفه ونعمته ، إذن هكذا عالج أوغسطين مسألة إرادة الإنسان وعلاقتها بإرادة الله . ومهما أعطى أوغسطين حرية الاختيار في الأفعال والأعمال إلا أن إرادة الله حسب أوغسطين تفوق كل إرادة ولذا وجب علينا السير وفقا لما تقرره لنا الإرادة الإلهية وهذا من شأنه أن يقودنا للفوز والتحصيل على نعمته وسعادته في اليوم الموعود .

¹ القديس أوغسطين ، خواطر فيلسوف في الحياة الروحية ، ص ص 138-139 .

❖ خلاصة :

في آخر هذا الفصل توصلنا إلى أن محرك التاريخ في نظر القديس أوغسطين ، هو الله ووسيلته في ذلك اللطف وذلك ما أكدته من خلال مفاهيمه في الجزاء والقدر وعلمه المسبق ، ولا وجود لآخر يساعده في ذلك ، بإرادة الله تفوق كل شيء ، في حين أن الإنسان له حرية اختيار وهته بدورها لا علاقة لها بالتاريخ وبالكون ، فكل شيء حاصل في الطبيعة هو تنظيم من الله ، فبفضل علمه المسبق ، الذي من خلاله يقدر ما يكون عليه كل إنسان ، إذ أن هذا الأخير يجب أن يخضع للقدر المكتوب له ، إضافة في هذا الفصل تناول أوغسطين موضوع الخطيئة أي خطيئة آدم ، فالخطيئة بحسب نظره هي التي أنقصت من حرية الإنسان ، إلا أنه بمجيء السيد المسيح سيتخلصون منها نهائيا على أمل السمو والوصول إلى الخلاص ، فأوغسطين عندما قام بشرح رسالة يوحنا الأولى ، أقر بأن كل البشر بفضل السيد المسيح كما ذكرت تخلصوا من الخطيئة إذ أنه أتاهاهم بوصية جديدة لا يجب التعدي عليها ، لأنه لو تم التعدي عليها ، لنشأت خطيئة أخرى ، وهته الوصية هي احترام وعدم التعدي على وصية السيد المسيح ، إذ أمرهم بفعل المحبة ، وهذا بدوره سيقودهم إلى اليوم الموعود وهو يوم راحة الرب والتمتع بالخلاص .

النقد

إن الخطأ الكبير في التفسير النصراني للتاريخ ، أن أسسه قامت على مبادئ خيالية يدحضها المنهج العلمي ، ففكرة الثالوث وفكرة التجسد التي أخرجت النصرانية عن كونها دين تألهي ، وفكرة الصلب بقصد التفكير عن خطيئة لا علاقة للمسيح بها ، وما ينجم عنها من أفكار انحلالية توحى بالانغماس في الدنيا ، والقول بأصالة الخطيئة في كيان الإنسان ، كل هذه الأفكار قد لونت التفسير النصراني للتاريخ ، وجعلته خليطاً من هنا وهناك لا تربطه رابطة عقلية ولا منطقية ، شأنه شأن العقيدة النصرانية التي بني عليها ، ووسط هذه الأمشاج المتنافرة ضاعت النصرانية الجديدة - الملقبة بالمسيحية - الصياغة المنطقية للتفسير النصراني للتاريخ ، فذابت الحدود ، في الفكر والتاريخ ، بين ما هو إلهي وما هو بشري ، وأصبح التفسير المسيحي للتاريخ جامعا لعناصر موغلة في اللاعقل.¹

إن القديس أوغسطين قد قيد مفهوم العناية الإلهية تقييدا لم يتجاوز فيه أصول الإيمان المسيحي ، ومن ثم يتعذر أن يسلم بنظريته غير مسيحي ، بل ذهب "هرنشو" إلى أنها ليست فلسفة ولا تاريخا وإنما مجرد لاهوت وقصص قام به خيال قديس ، لقد مسخ فيه الحقيقة وجعل البشر كقطع الشطرنج في لعبة على رقعة الزمان بين الله والشيطان ، فبعيدا عن الحقيقة تصور حضارات العالم القديم على أنها تمثل الشر وأبعد عن الحق حتى من الناحية الدينية البحتة ، ومن ثمة لقد وجدت هذه النظرية ردود فعل عنيفة في عصر التنوير ، ومع ذلك فقد قدر لها أن تسود الفكر الأوروبي ما يقرب من ألف سنة حين سيطرت الكنيسة على الفكر والسياسة طوال العصور الوسطى.²

إضافة إلى أنه من بين الانتقادات التي وجهت له وهو رفضه لنظرية التعاقب الدوري للحضارات ، ذلك أن الأحداث وفقا لهذه النظرية تميل إلى أن تتكرر بينما اللاهوت المسيحي يجعل من صلب المسيح أهم واقعة تاريخية منذ بداية الخلق ، ومن ثم عارض أوغسطين القول بالتعاقب الدوري ، مؤكداً بفردية الواقعة التاريخية ومن ثم استحالة تكرارها ، وبذلك فأوغسطين بعد كل البعد عن الحقيقة إذ تصور من الناحية الدينية البحتة أن بني إسرائيل يمثلون الخير أي مدينة الله ، فكيف فسر قتلهم للأنبياء بغير الحق.³

كما تناول أوغسطين لفكرة الإرادة البشرية وفيما كتبه الله للإنسان من قدر محتوم لظهر وجود توترات مختلفة في فكرة لم يستطع التوفيق بينها ، ذلك أن اقتناعه بسيطرة الله على كل شيء غلب فكرة الاختيار والمسؤولية عند

¹ عبد الحليم عويس ، مرجع سابق ، ص 87 .

² أحمد محمود صبحي ، مرجع سابق ، ص 170 .

³ رأفت الشيخ ، مرجع سابق ، ص 43 .

الإنسان ، ولهذا نجد أوغسطين من خلال نظريته في العناية الإلهية قد ضيق مفهوم التاريخ إذ أصبح مقيدا بسلطان الكنيسة الكاثوليكية متجاهل بذلك كل الحضارات القديمة سواء الفرعونية أو الهندية أو الصينية وغيرها.¹

إن الجدير بالذكر أن انتقاد فولتير لمفهوم العناية الإلهية كان نقدا جدليا لاستبعاده كأساس لتحديد مسار التاريخ ، إذ يقول « إن الله قد خلق العالم وفقا لقوانين ثابتة لا علاقة لها بأفعال الإنسان من خير أو شر ، وأن الله منح الإنسان العقل ليحسن استخدامه من أجل سعادته وسعادة الآخرين ومن ثم فإن التاريخ لا يسير وفقا لمفهوم العناية الإلهية لدى اللاهوتيين وإنما بمقتضى العقل البشري نحو الأفضل لقد تحرر الإنسان من الجهالة والخرافة في العصور التي تحكم فيها العقل ، إن التقدم انتصار لقوى النور على الظلام حيث يكون العقل هو المرشد .²

من هذا كله لا نستطيع إنكار مدى العمل بهتة النظرية -العناية الإلهية- فلقد تأثر بها العديد من الفلاسفة وأصبحت ممتدة إلى غاية عصر النهضة .

هذا ما نلمسه عند جون كالفن (1509-1564) عندما كان يعتقد أن الله قد نظم العالم ، فكل إماراته ومقاطعاته صور من مملكة السيد المسيح ، فيجب علينا ألا نجهل هذه الحقيقة ، إضافة إلى ما قال به جاك بوسيه (1627-1704) إذ كان من أشد المعجبين بأفكار أوغسطين بحيث كان ينادى بأنه لا مجال للصدفة ولا للحظ ، فوفقا للخطة الإلهية تقوم الدول وتنهار وتسيطر على الناس في التاريخ قوة فوقهم.³

ومع هذا كله فكل الآراء التي كانت موافقة لأفكار أوغسطين ، هي أيضا لقيت العديد من الانتقادات ، وهذه الفلسفة لا مجال للاتفاق ، فكل نظرية تأتي نظرية أخرى للقضاء على صحتها وهته الأخيرة بدورها ستعرض حتما للنقد ، ومن هذا يمكننا أن نقوم بمقارنة بسيطة بين الديانة المسيحية في تفسيرها للتاريخ وآراء أوغسطين ، وبين الدين الإسلامي ، إلا أنهما يتفقان في بعض الأمور تتعلق بتاريخ حياة الإنسان ، إلا أن الدين الإسلامي يمتاز بالدقة والوضوح .

لو نظرنا إلى خطيئة آدم ، والعقاب الذي لاحق ذريته ، في حين أن الدين الإسلامي يقول بأن خطيئة آدم لا علاقة لها بذريته وكل شخص مسئول عن أفعاله ، وبهذا نستعين بقوله تعالى « فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحى ،

¹ رأفت غنيمي الشبخ ، مرجع سابق ، ص 84 .

² محمود الشرقاوي ، مرجع سابق ، ص 193 .

³ المرجع نفسه ، ص ص 195-196 .

فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ، فأكلا منها فبدت لهما سوءتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى .¹

ومن خلال قوله تعالى ، يتبين لنا أن الله غفر لآدم وتاب عليه ، إذ لم تصبح خطيئة آدم مقتزنة بذريته ، فكل شخص أصبح لديه الحرية في أفعاله ، ولا علاقة لها بخطيئة آدم ، فمن يفعل الخير يثاب ومن يفعل الشر يعاقب ، إذ أن خطيئة آدم لم يكن عقابها كما قال أوغسطين وذهب إليه المسيحيين أن عقاب الخطيئة وهو الموت .

وزيادة على هذا أن الإنسان إذا انحط وقام بفعل الشر فهذا لا يعني أنه بسبب خطيئة آدم وإنما بسبب الأعمال السيئة التي ارتكبها هو نفسه ، وهذا في قوله تعالى « والتين والزيتون ، وطور سنين ، وهذا البلد الأمين ، لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ، فما يكذبك بالدين ، أليس الله بأحكم الحاكمين . »²

إن الطبيعة الإنسانية التي خلق بها هي خيرة ، فلقد خلق في أحسن تقويم ، إذ أن الإنسان سيجازى على أعماله ، فالشر ليس نتيجة لخطيئة آدم ، فالإنسان له حرية الاختيار بين الشر والخير فكل منهما هو ما يجنيه الإنسان في حياته .

إن تجسد الله في المسيح ، هكذا يقول الدين المسيحي بما فيه رأي أوغسطين ، بحيث أكدوا بأن السيد المسيح سيظهر لهم خلال التاريخ في صورة الله ، ليخلصهم من خطاياهم ويقودهم إلى الخلاص ، وهذا خطأ كبير وقعت فيه المسيحية لأن السيد المسيح في حد ذاته حين ولد قال "أني عبد الله" ولم يقل "أني أنا الله" وهذا ما ورد في قوله تعالى « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام أنظر كيف نبين لهم الآيات ثم أنظر أنى يؤفكون . »³

¹ سورة طه ، الآية 116 - 122 .

² سورة التين ، الآية 01 - 08 .

³ سورة المائدة ، الآية 75 .

الخاتمة

وبعد هذا العرض الشامل لمفهوم العناية الإلهية ودورها في التاريخ عند القديس أوغسطين ، وكذا في الديانة المسيحية ، سعيا بذلك للوصول إلى نتائج من شأنها أن تهيئنا على الإشكالية التي قمنا بطرحها ، والتي كانت تتمحور حول نظرة أوغسطين للتاريخ ، عن ما إذا كانت لاهوتية ؟ أم فلسفية ؟ وذلك ما قادنا لطرح العديد من التساؤلات التي تمهد لنا على الإجابة عن الإشكالية المطروحة ، إذ توصلنا لعدة نتائج والمتمثلة فيما يلي :

- اكتشفنا بأن العصور الوسطى كان لديها اهتمام بالتاريخ إذ كان لديها حس تاريخي وهذا الأخير ناتج من الغاية التي يسعها إليها الإنسان ألا وهي الله .
- إن فكرة العناية الإلهية في حد ذاتها ليست بفكرة حديثة النشأة وإنما هي قديمة قدم الحضارات مثل المصرية ، البابلية ، اليونانية ... الخ ، إذ أصبحت حاملة لطابع مسيحي وذلك بظهور الديانة المسيحية.
- الدين المسيحي كان يتميز بميزة ألا وهي أن العناية الإلهية ليست مقتصرة على شعب بعينه كما يزعمون اليهود ، فعناية الله موجهة لجميع الفئات ولا وجود لشعب اصطفاه الله على غيره .
- إن انقلاب أوغسطين الفكري وتركه في ذلك للمذاهب المانوية وتأثره بالأفلاطونية المحدثة ، وإلى جانب ذلك تأثره بفلسفة شيشرون ، وكذا الاستماع إلى نصائح القديس أمبروز ، أبعث فيه حبا لله وتمسكا بالعتيدة المسيحية بكل ما جاء من تعاليم فيها . وذلك من خلال أنه وضع منهاجا للدفاع به على الدين المسيحي ، وتأكيد على وجوب الفهم الصحيح للنص ، انطلاقا من منهجه في التأويل الرمزي .
- إن فلسفة أوغسطين كانت تسعى للبحث عن السعادة وهته الأخيرة ، أكد أوغسطين بأننا لا نستطيع الوصول إليها والتمتع بها ، ما لم نصل إلى الله ، لأن الله فيه الحكمة وهته بدورها تشعر الإنسان بالسعادة واللذة العقلية ، ومن آمن بإرادة الله سيعطيه إياها .
- إن نظرة أوغسطين للتاريخ هي نظرة لاهوتية بالدرجة الأولى ، وحجته في ذلك وهو أنه لولا العتيدة لما عرفنا تاريخا عالميا موحدا لكل الإنسانية ، فالعتيدة وحدها هي التي تكشف عن مسار التاريخ وغايته وبهذا فالتاريخ علم خادما للعتيدة والعتيدة مفسرة للتاريخ ، والحقيقة التاريخية هي التي تكون في الكتاب المقدس ، إلا أنه لم ينس الجانب الفلسفي ، وذلك ما يظهر لنا من خلال نظريته في العناية الإلهية التي كانت تمزج بين الرؤية الدينية والحجة العقلية ، فعندما نؤمن بأن الله بفعل عنايته في التاريخ ، وبجانب إيماننا بكتابه ، سيعطى لنا الحكمة وينير لنا عقولنا لأن رأس الحكمة مخافة الرب كما كان يقول أوغسطين ، والحكمة لا توجد إلا عند الله ، فالإيمان به يقودنا إلى السعادة والسلام الأبدي ، وذلك من

- خلال عدم التعدي على وصية المسيح التي بعث من أجلها ، لأن السيد المسيح سيخلصنا من الخطيئة الأصلية التي ارتكبها آدم ومن هنا يقودنا إلى الخلاص والراحة في الرب .
- إن الاستعانة بمفاهيم القديس أوغسطين اللاهوتية مثل "الخطيئة الأولى" و "مفهوم الجزاء" ، "إرادة الله وإرادة الإنسان" "مفهوم علم الله المسبق" وكل هته المفاهيم من شأنها أن تكشف لنا عن نظرتة اللاهوتية للتاريخ ، بحيث أن الله بفضل علمه الأزلي جعله يتصور كل ما سيحدث ، وذلك وفقا لخطة إلهية أقرها الله وحده.
 - إن التاريخ يعيد نفسه فكرة خاطئة في نظر القديس أوغسطين وفي نظر أنصار العناية الإلهية على العموم، لأننا لو سلمنا بهذا ، سيختفي مفهوم المسؤولية والقدرة على اتخاذ القرارات، وبالتالي لا يوجد معنى حقيقي للتاريخ، إن أحداث التاريخ سوف تتكرر من وقت إلى آخر. كما يزعمون اليونانيون لم يدركوا أن التاريخ نفسه يقود إلى هدف. ونظرة اليونان للتاريخ مناقضة لوجهة النظر المسيحية للتاريخ، والتي ترى أن التاريخ هو اكتمال لقصد الله ، ويتحرك إلى هدفه ، إذن التاريخ لا يعيد نفسه ، وإنما هو اتجاهها تقدما نحو الكمال ، ومن هنا فالتاريخ ينتهي بالحيء الثاني للسيد المسيح .
 - فالله من هذا هو المحرك الوحيد للتاريخ ، ولا وجود لإرادة البشر في صنع تاريخهم ، وكل ما يملكونه هو التصرف في أفعالهم ، حتى وإن هته الأفعال كان يصفها أوغسطين بأنها أفعال سيئة ، ولذا وجب التقرب من الله لنيل السعادة والخلاص .
 - زمان واحد وتاريخان ، هذا ما عبر عنه أوغسطين ، لأن الزمان هو الذي يكتسب صفة الأبدية إذن من اختصاص الله ، في حين التاريخان وهما تاريخ مدينة الأرض وتاريخ مدينة السماء ، وفي هذا الزمان سيتحقق كل من مدينتي الأرض والسماء .
 - إن الفوز بالسعادة والسلام والراحة في الرب يوم السبت كما يعتقدوا لا بد أن يكون للبشر اهتمام بالجوانب الروحية والعيش وفقا للروح لأنها شيء أبدي على العكس من العيش وفقا للجسد والنفس فهته أشياء مؤقتة لا تمنحنا السعادة والسلام في اليوم الآخر .

قائمة المصادر والمراجع

- قائمة المصادر والمراجع :

- أولاً : قائمة المصادر :

- 1- القرآن الكريم .
- 2- الكتاب المقدس.
- 3- القديس أوغسطين : الاعترافات ، ترجمة الخوري يوحنا الحلو ، ط 4 ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان ، 1986.
- 4- القديس أوغسطين : مدينة الله ، ترجمة ، الخور أسقف يوحنا الحلو ، المجلد 1 ، ط 2 ، دار المشرق ، بيروت ، 2006 .
- 5- القديس أوغسطين : مدينة الله ، ترجمة الخور أسقف يوحنا الحلو ، المجلد 2 ، ط 2 ، دار المشرق ، بيروت ، 2007.
- 6- القديس أوغسطين : مدينة الله ، تر الخور أسقف يوحنا الحلو ، المجلد 3 ، ط 2 ، دار المشرق ، بيروت ، 2007.
- 7- - القديس أوغسطين : شرح رسالة القديس يوحنا الأولى ، تر ، الخوري يوحنا الحلو ، ط 4 ، دار المشرق ، بيروت ، 2001.
- 8- القديس أوغسطين : خواطر فيلسوف في الحياة الروحية ، ترجمة الخوري يوحنا الحلو ، ط 7 ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان ، 2004.

- ثانيا : قائمة المراجع :

- 1- أحمد محمود صبحي : في فلسفة التاريخ ، (دط) ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية ، 1975.
- 2- إيتين جلسون : روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط ، ترجمة ، إمام عبد الفتاح إمام ، ط 3 ، مكتبة مدبولي ، (د م) ، 1996.
- 3- ألبان ويدجري : التاريخ و كيف يفسرونه ، من كونفشيوس إلى توينبي ، ترجمة ، عبد العزيز توفيق جاويد ، الجزء الأول ، ط 2 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (د م) ، (د ت) .

- 4- المطمران كيرلس سليم بسترس وآخرون : تاريخ الفكر المسيحي عند آباء الكنيسة ، ط 1 ، منشورات المكتبة البولسية ، بيروت ، 2001.
- 5- إمام عبد الفتاح إمام : الفيلسوف المسيحي و المرأة ، ط 1 ، مكتبة مديولي ، القاهرة ، 1996.
- 6- أرمسترونغ ، مدخل إلى الفلسفة القديمة ، ترجمة سعيد الغانمي ، ط 1 ، كلمة و المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 2009.
- 7- بيزيل سمالي : المؤرخون في العصور الوسطى ، ترجمة ، قاسم عبده قاسم ، ط 2 ، دار المعارف ، القاهرة ، 1984
- 8- جاريث ماثيوز : أوغسطين ، تر أيمن فؤاد زهري ، ط 1 ، آفاق للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2013.
- 9- جونو و بوجوان : تاريخ الفلسفة و العلم في أوروبا الوسطية ، ترجمة ، علي زغور و علي مقلد ، (د ط) ، عز الدين للطباعة و النشر ، بيروت ، لبنان 1993.
- 10- هاري المر بارنر : تاريخ الكتابة التاريخية ، ترجمة ، محمد عبد الرحمن برج ، مراجعة ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، ج 1 ، (د ط) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (د م) ، 1987.
- 11- زينب محمود الخضيرى : لاهوت التاريخ عند القديس أوغسطين ، (د ط) ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1997.
- 12- حسن حنفي حسنين : نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط ، أوغسطين ، أنسلم ، توما الإكويني ، ط 2 ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1978.
- 13- يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط ، (د ط) ، مؤسسة هندواى للعلم و الثقافة ، القاهرة ، (د ت) .
- 14- كامل محمد محمد عويضة : أوغسطين ، فيلسوف العصور الوسطى ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1993.
- 15- محمود الشرقاوي : التفسير الديني للتاريخ ، ج 1 ، (د ط) ، مطبوعات الشعب التراث والعلوم الإسلامية لكل الشعب ، (د م) ، (د ت) .
- 16- مصطفى النشار : فلسفة التاريخ ، ط 1 ، شركة الأمل للطباعة والنشر ، (د م) ، 2004 .

- 17- عامر عبد زيد وآخرون : فلسفة التاريخ ، جدل البداية والنهاية والعود الدائم ، ط 1 ، ابن النديم للنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2012.
 - 18- عبد الحليم عويس : فلسفة التاريخ ، نحو تفسير إسلامي للسنن الكونية و النواميس الاجتماعية ، الطبعة الأولى ، الصحوة للنشر و التوزيع ، القاهرة ، 2011.
 - 19- عبد الرحمان بدوي : فلسفة العصور الوسطي ، ط 3 ، دار القلم ، بيروت ، لبنان 1979.
 - 20- علي زيغور : أوغسطينوس مع مقدمات في العقيدة المسيحية و الفلسفة الوسيطية ، ط 1 ، دار اقرأ ، بيروت ، لبنان ، 1983.
 - 21- قاسم يزيك : التاريخ ومنهج البحث العلمي ، ط 1 ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، لبنان ، 1990.
 - 22- قاسم عبده قاسم : تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية ، ط 1 ، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية ، الهرم ، 2000.
 - 23- رأفت الشيخ : تفسير مسار التاريخ ، نظريات في فلسفة التاريخ ، (د ط) ، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية ، الهرم ، 2000.
 - 24- رأفت غنيمي الشيخ : فلسفة التاريخ ، (د ط) ، دار الثقافة و النشر و التوزيع ، القاهرة ، 1988.
- المعاجم والموسوعات :
- أولا : المعاجم :
- 1- ابن منظور : لسان العرب ، المجلد 9 ، (د ط) ، دار صادر ، بيروت ، (د ت) .
 - 2- جميل صليبا : المعجم الفلسفي ، الجزء الأول ، (د ط) ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، 1982.
 - 3- جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، الجزء الثاني ، (د ط) ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، 1982.
 - 3- جورج طرايشي : معجم الفلاسفة ، ط 3 ، دار الطليعة للطباعة و النشر ، بيروت ، لبنان ، 2006.
 - 4- شوقي ضيف : المعجم الوسيط ، ط 4 ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة ، 2004.

- ثانيا : الموسوعات :

- 1- أندريه لالاند : موسوعة لالاند الفلسفية ، تعريب خليل أحمد خليل ، المجلد الثاني ، ط2 ، منشورات عويدات ، بيروت ، باريس ، 2001، ص 1064 .
- 2- معن زيادة : الموسوعة الفلسفية العربية ، ط1 ، معهد الإنماء العربي ، (دب) ، 1986.
- 3- عبد الرحمان بدوي : موسوعة الفلسفة ، الجزء الأول ، ط1 ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، 1984.
- 4- عبد الرحمان بدوي : موسوعة الفلسفة ، الجزء الثاني ، ط1 ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، 1984.

الفهرس

فهرس الموضوعات

- الإهداء

- كلمة شكر

01..... مقدمة

06..... - الفصل الأول: التأويل اللاهوتي في الديانة المسيحية.

07..... • تمهيد

08..... • المبحث الأول: مدلول العناية الإلهية.

11..... • المبحث الثاني: التفسير المسيحي للتاريخ.

11..... ✓ أولاً: التاريخ لغة واصطلاح.

13..... ✓ ثانياً: رؤية المسيحية للتاريخ.

18..... • المبحث الثالث: العناية الإلهية من منظور مسيحي.

22..... • خلاصة.

23..... - الفصل الثاني: تطور رؤية أوغسطين للتاريخ.

24..... • تمهيد

25..... • المبحث الأول: المسار الفكري للقديس أوغسطين.

29..... ✓ مصنفاته.

30..... • المبحث الثاني: مفهوم التاريخ عند أوغسطين.

32..... ✓ أولاً: التاريخ علم خادماً للعقيدة.

33..... ✓ ثانياً: الحقيقة التاريخية.

35..... • المبحث الثالث: منهج الأحداث التاريخية عند أوغسطين.

35..... ✓ أولاً: سد الثغرات التاريخية.

35..... ✓ ثانياً: إعادة ترتيب الأحداث.

36..... ✓ ثالثاً: النقد التاريخي.

37.....	✓ رابعا: منهجه في تأويل الأحداث.....
40.....	• المبحث الرابع: التطور والتغير
44.....	• خلاصة.....
45.....	- الفصل الثالث: محرك التاريخ في نظر أوغسطين.....
46.....	• تمهيد.....
47.....	• المبحث الأول: نظرية العناية والتخطيط الإلهي.....
52.....	• المبحث الثاني: مشكلة الخطيئة واللفظ الإلهي.....
57.....	• المبحث الثالث: الجزاء والقدر وعلم الله المسبق.....
59.....	• المبحث الرابع: إرادة الله وإرادة الإنسان.....
64.....	• خلاصة.....
65.....	✚ النقد.....
69.....	✚ الخاتمة.....
72.....	✚ قائمة المصادر والمراجع.....
77.....	✚ الفهرس.....

ملخص البحث

إن فكرة العناية الإلهية سادت في معظم الحضارات القديمة منها الحضارة المصرية والبابلية والآشورية واليونانية... الخ، فكل هته الحضارات آمنت بأن الإنسان جزء من هذا الكون فهو خاضع بذلك إلى قوانين مثله مثل الكون ، ولكن بعد قيام المسيحية أخذت فكرة العناية الإلهية طابعا مسيحيا ، لأن النشاط الإنساني حسب المفهوم الكنسي آنذاك تسيره العناية الإلهية وما جميع أعمال الإنسان إلا أدوات في تنفيذ المشيئة الإلهية ، وعليه فعقلية العصور الوسطي الكهنوتية أعفت تماما الإنسان من صنع تاريخه وترك الأمر بذلك إلى الله وذلك توفيقا مع التسليم الكاثوليكي بما يسمى بالمقدر والمكتوب .

من هنا تطورت فكرة العناية الإلهية واتضحت أكثر لتصبح كنظرية عند القديس أوغسطين (430/354) بحيث أنها تمزج بين الرؤية الدينية والحجة العقلية ، والذي كانت فلسفته للتاريخ ذات صبغة دينية واضحة وإن حاول إسنادها على أسس عقلية استمدتها من الفلسفات اليونانية التي تأثر بها وخاصة فلسفتي سقراط وأفلاطون ، ومن هنا أعطى أوغسطين الأولوية لله ومن ثم فالإرادة الإلهية هي التي تقود هذا الكون وتسير مجرى الأحداث التاريخية ، وذلك لأن التاريخ الذي تحدث عنه في معظم كتبه وخاصة "مدينة الله" يحمل طابع ديني أكثر من ما هو طابع تاريخي لأن التاريخ بالمفهوم الأوغسطيني هو ذلك الذي يدور بين المؤقت والأبدي ، أي بين ما هو حاصل في العالم أو بالأحرى المدينة الأرضية وبين المدينة السماوية ، فالتاريخ لا يخرج عن نطاق هته الحلقة .

بعدما أخذت فكرة العناية الإلهية طابعا مسيحيا ، وأصبحت بعد ذلك نظرية عند القديس أوغسطين ، ومن هنا نكتشف بأن محرك التاريخ ، عند المسيحية عموما وعند أوغسطين خصوصا هو الله ووسيلته في ذلك اللطف ، فأوغسطين حاول جاهدا الدفاع على الكتاب المقدس بما فيه من تعاليم إلهية ، مؤكدا بأن إرادة الله وبفضل علمه المسبق يريد أحسن نظام للكون ، في حين أن الإنسان وفقا للعناية الإلهية لا دور له في صنع التاريخ ، وكل ما يملكه هو التصرف في أفعاله ، ومن هذا انتشرت فكرة العناية الإلهية إلى غاية عصر النهضة ، إذ أكدوا أنصار هته النظرية من هذا على أن التاريخ مسرحية ألفها الله ويمثلها الإنسان ، ولا يستطيع التغيير في الدور الذي يلعبه في هذا التاريخ ، إذ وجب عليه أن يرضى بما هو قدر له .

Résumé de la recherche

L'idée de la providence divine a prévalu dans la plupart des civilisations anciennes, y compris la civilisation égyptienne, babylonienne, assyrienne, grecque ... etc., toutes les civilisations HTH croyait que la partie humaine de cet univers est soumis à comme des lois telles que l'univers, mais après l'établissement du christianisme a pris l'idée de caractère de la providence divine chrétienne, parce que l'activité humaine selon le concept canon puis parqués par la providence divine et tout humaine ne fonctionne que des outils dans la mise en œuvre de la volonté divine, et la mentalité médiévale de l'homme sacerdotal exonérait de faire l'histoire et laisser ainsi à Dieu et que la conciliation avec la livraison catholique, y compris ce qu'on appelle Balmekdr et écrit.

De là a évolué l'idée de la providence divine est apparu plus pour devenir une théorie quand saint Augustin (354/430) de sorte qu'il combine la mentalité religieuse et l'argument de la vision, qui était la philosophie de l'histoire avec un caractère religieux clair a même essayé d'être attribué sur la base de la mentalité qu'il a tiré des philosophies grecques influencées par en particulier la philosophie Socrate et Platon, d'où Augustin a donné la priorité à Dieu et sera est le divin dirige l'univers et en déplaçant le cours des événements historiques, parce que la date à laquelle il a parlé dans la plupart de ses livres, en particulier la « cité de Dieu » porte un caractère religieux plus que ce qui est de nature historique parce que concept historique augustinien est celui qui est entre le temporaire et l'éternel, entre ce qui se passe dans le monde ou

plutôt la terre entre la ville et la cité céleste, l'histoire ne sort pas de l'épisode HTH.

Après avoir pris l'idée de caractère de la providence divine chrétienne, puis il est devenu une théorie à Saint-Augustin, et ici nous découvrons que le moteur de l'histoire, quand le christianisme est en général quand Augustin est particulièrement Dieu et Oselth la bonté, Vougustin a essayé difficile de défendre la Bible, avec ses enseignements divins, soulignant que la volonté de Dieu et grâce à avancer ses connaissances veut le meilleur système de l'univers, tandis que l'homme selon le soin de Dieu n'a pas de rôle à faire l'histoire, et tout ce qu'il possède est la disposition de ses actions, ce qui a propagé l'idée de la providence divine jusqu'à la Renaissance, en tant que partisans confirmés théorie HTH cette histoire qu'une pièce écrite par Dieu, représenté par l'homme, et ne peut pas changer dans le rôle joué dans cette histoire, comme il doit être satisfait de ce qui est destiné.

تم بحمد الله